مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 01 (2021م) ـ ص ص 147 – 178
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

العلاقة بين البداوة والحضارة في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية

The relationship between Bedouin (rural) life and city life in light of the judgments of the Islamic Law (Sharia)

د. سمير ربـــوزي *
المدرسة العليا للأساتذة، بوسعادة (الجزائر)
s.rabouzi@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2020/07/19	2021/02/12	2021/06/30

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

ورد في القرآن والسنة أدلةٌ على ذمّ البداوة، والنهي عن سكناها، منها آيةٌ قرآنية فَهِم منها أكثر أهل التفسير أنّ الله تعالى جعل النبوة في أهل الحضر؛ فلم يبعث في أهل البدو نبيّا ولا رسولا.

ومنذ بداية الدرس الحضاري، وظهورِ النظريات الفلسفية، والمذاهب الفكرية المتعلقة بتاريخ الحضارة وتطوّرها، والعلماءُ والباحثون يولون وافرَ عنايتهم بأسس الحضارة، وشروط نهضتها، وعوامل تقدّمها، ونحو ذلك، ومع ذلك فإنّه يصعب العثور على كلام واضح في بيان جانب مهمّ من العلاقة بين البداوة والحضارة؛ هو معرفة سببِ النهي عن سكنى البوادي، والأمرِ الذي فَضُلت به الحضارة على البداوة.

لأجل ذلك كانت كتابة هذه الورقة.

الكلمات المفتاحية: الشريعة الإسلامية؛ الحضارة؛ البداوة؛ العلم الشرعي؛ مخالطة الناس؛ الجفاء.

Abstract :

Nomadisme is disgraced by koran and Sunna, Including a Qur'anic verse, mostly understood that ALLAH has made prophethood in civilization; He never sent a prophet to nomadic-pastoral life-. Scietists and researchers have been very interested in the foundations, conditions and factors of civilization since the beginning of the emergence of philosophical theories and intellectual doctrines about its history and development. But eventually, it is hard to find a clear explanation around an important point in the relationship between nomadisme and civilization, why it is forbidden to live in nomadisme and what makes civilization better than nomadisme.

This paper is written for this purpose.

Keywords:
sharia; civilization; rural life; islamic science; dealing people; rudeness

* المؤلف المراسل

1. مقدمة:

الحمد لله خالقِ كلِّ شيءٍ بقدَر، المستحقِّ للعبادة من عباده أجمعين؛ أهلِ البدْو والحضر، المتفضّل عليهم بالنّعم والآلاء: ما بطن منها وما ظهر، وأصلّي وأسلّم على من بعثه الله رحمة للبشر، فنصح الأمّة، وكشف الله تعالى به الغمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده واصطبر، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، السائرين على نهجه، والمقتفين للأثر، أمّا بعد

فإنّ من مظاهر تسوية الله تعالى لخلق الإنسان وتعديله أن جعله ميّالا إلى الأُلفة بطبعه، محتاجًا إلى الأنس بفطرته؛ لا تحلو له وحدة، ولا يطيب له مقام في اعتزال من حولَه، وهذا من ألطاف المولى جلّت قدرتُه بهذا المخلوق العجيب الذي ما أُوجد هذا الكون الفسيح إلا لتيسير الغاية العظيمة التي خُلق لأجلها، وهي تحقيق العبودية لله عزّ وجل؛ إذ من المعلوم أنَّ تدافُع الناس بعضهم ببعض، وارتباطَ مصالحهم، من شأنه أن يكفل ضمان بقاء نوعهم، واستمرار تكاثرهم وتحقّق مطالبهم؛ ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية معتنيةً بمسائل الزواج، والبيوع، والجيرة، والقضاء، ومختلف أبواب المعاملات التي يحتاجها الناس في مجتمعاتهم، و يتوقف عليها نجاح علاقاتهم وتحقُّقُ مصالحهم.

ومن تمام حرص الشريعة على هذا المطلب، واهتمامها بتوفير كلّ ما ييسّر سبل تحقيق الغاية العظمى من خلق الجنّ والإنس، أن لم تكتفِ بتنظيم الحياة في الحواضر، وسَنّ القوانين الكفيلة بضبط عبادات الناس ومعاملاتهم فيها؛ بل حذّرت مع ذلك من سُكنى البوادي، ونهت عن الانتقال من المدن والأمصار إليها إلا لحاجة أو ضرورة، ومن أشهر النصوص الشرعية، وأقواها في الدلالة على هذا المعنى الآية الكريمة من سورة التوبة، قول الله عزّ وجل: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ ﴾ [التوبة: 97]، وقول النبيﷺ: **«مَنْ سَكَنَ البادِيةَ جَفَا»** (أحمد، 1995، ج3، ص422).

ولعلّ هذا الموقف الشرعي من سكنى البوادي هو أحد أهمّ أسباب التفاف كثير من الباحثين والمفكرين حول مائدة الدراسات الحضارية، واشتغالهم الكبير ببحث أسس الحضارة الإسلامية، وعوامل تقدّمها، وسبل استقرارها وتطوّرها، وأسباب ضعفها وانهيارها، ونحو ذلك من المباحث الحضارية الكثيرة والمتنوعة، وأمّا إذا تعلّق الأمر بالحضارة عموما، وأضيفَ إلى هذه الدراسات أعمالُ المفكرين الغربيين، وفلاسفة الحضارة الحديثة فإنّه لا يُعدّ من المبالغة في شيء أن يُقال إن هذه الدراسات قد فاق حجمها كلّ الحدود، وجاوز المدادُ الذي أُسيل فيها حدّ المعقول، وحسبُنا دليلا على ذلك أنّ من يحاول البحث عن تعريفٍ اصطلاحي للفظة الحضارة وحدها فإنّه سيتيه بين مئات التعريفات، ليس بين كثير منها تشابه ولا ترابط، ولا يكاد يكتب باحث في مجالٍ من مجالات علم الحضارة إلا وينبّه على هذه المشكلة التي تقابل القارئ مع أوّل ولوجه هذا العلم؛ مما يشي بأنّ كمّا هائلا من الدراسات الحضارية لم تُؤصَّل مباحثُها، ولا توحّدت الرؤى

والتصورات لدى كثير من أصحابها، فضلا عن أكثرهم؛ ومن أهمّ أسباب هذا الوضع ما يغذّي أقلامَ هؤلاء الباحثين، وبخاصة الغربيين، من خلفيات ذهنية، ومرجعيات إيديولوجية تتحكّم في ما يُلقون به من نظريات وأفكار مرسلة في حقل هذه الدراسات الواسع.

ومن بين أهمّ المسائل التي يرى الباحث أنّها لم تنل بعدُ حظًّا كافيا من العناية والدرس، مع بالغ أهمّيتها، وحاجة البحث الحضاري الشديدة إليها، **مسألةُ العلة من نهي الشريعة الإسلامية عن سكنى البوادي**، وسبب تفضيلها الإقامةَ في المدن والأمصار عليها؛ وهي المسألة التي قام لدراستها هذا المقال، الذي اختير له عنوان: **العلاقة بين البداوة والحضارة في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية**، والمتمحور حول الإجابة عن التساؤلات الآتية:

– لماذا نهت الشريعة عن سكنى البوادي؟ وهل يُفهَم منه الأمر مطلقًا بسكنى الحواضر، أم أنّ هذا الأمر معلَّلٌ هو الآخَر؟

– كيف يُجمع بين نهي الشريعة عن البداوة من جهة، وتشريعِها أحكامًا كثيرة لأهل البوادي، وثناؤُها على بعضهم في الكتاب والسنة من جهة أُخرى؟

– هلِ النهيُ عن البداوة مطلقٌ مادامت العلة عن سكناها قائمة، أم أنّه مقيّد بكون الحضارة جارية على سننها التي أرادها النبيﷺ؟

– ما هي أهمّ دعامة تقوم عليها الحضارة في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية؟

نحاول في بحثنا هذا الإجابة عن هذه التساؤلات، ونشير إلى أنّ الدراسات الحضارية الإسلامية وإن كانت كثيرة ومتنوّعة، وبعضها قيّمٌ جدًّا، إلا أنّنا لم نقف على دراسة سابقة لموضوع هذا المقال، غير أنّ ذلك لا ينفي تناثر أجزاء كثيرة منه في طيّات بعض هذه الدراسات، وبخاصة في أبوابها المتعلقة بأسس الحضارة الإسلامية، وخصائصها، وأصولها، ونحو ذلك؛ ليكون هدف هذا المقال جمع هذه الأجزاء المتناثرة، والتأليف بينها، وإخراجها في حُلّة جديدة، وقالَب واضح.

واللهَ تعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به صاحبه، ويفيد قارئه، وأن يعفو عمّا فيه من زلل أو خلل، إنّه سبحانه سميع مجيب.

2. تعريف البداوة والحضارة

2. 1. التعريف اللغوي: الملاحَظ على تعريف اللغويين لمادّة "بدا" ومشتقّاتها أنّ لهم في ذلك صنيعين اثنين:

الصنيع الأوّل يظهر عند تعريف هذه المادّة؛ وهو اتّفاقهم على أنّها تدلّ على معنى واحد هو الظهور والبروز، قال ابن فارس: "الباء والدال والواو أصل واحد، وهو ظهور الشيء، يقال: بدا الشيء يبدو: إذا

ظهر، فهو بادٍ" (ابن فارس، 1979، ج1، ص212)، وقال ابن منظور: "بدا الشيء يبدو بَدوًا وبُدوًّا وبَداءً وبَدًا..: ظهر، وأبديته أنا: أظهرته" (ابن منظور، 1993، ج14، ص65).

وأمّا **الصنيع الآخر** فيظهر عند تعريفهم للألفاظ المشتقة من هذه المادّة، وأشهرها: البادية، والبدو، والبداوة؛ وهو ذِكر مقابلاتها من مشتقات مادة "حضر" في بيان معانيها، ولو بعد ذكر معناها الأصلي الذي هو الظهور؛ ففي تعريف البادية مثلا يقولون هي خلاف الحاضرة، وفي تعريف البدو يقولون خلاف الحضر، والبداوة خلاف الحضارة، والبادي خلاف الحاضر، والبدوي خلاف الحضريّ، وهكذا.

وكذلك الشأن في تعريفهم لألفاظ الحضارة، والحضر، والحاضرة، والحضري، ونحوها، كلها يقابلونها بما يوافق وزنها من ألفاظ مادّة بدا؛ فالحضارة خلاف البداوة، والحضر خلاف البدو، وهكذا.

ولم يتابع أكثرُ المفسرين أئمةَ اللغة وأصحاب المعاجم في صنيعهم هذا؛ بل لزموا المعنى اللغوي لمادّة بدا في تعريف ما ورد منها في كتاب الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: 100]؛ فقد اكتفى فريقٌ من المفسرين بتعريف هذه اللفظة بأنها البادية، وشرحها آخرون شرحًا لغويا فريدًا كما هي عادة أهل التفسير في بيان معاني ألفاظ الكتاب العزيز؛ فقال البغوي رحمه الله: "البدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم..، يقال: بدا يبدو إذا صار إلى البادية" (البغوي، 1997، ص281)، وقال الألوسي رحمه الله (1994، ص57): "البدو أي البادية، وأصله البسيط من الأرض؛ وإنما سمي بذلك لأن ما فيه يبدو للناظر لعدم ما يواريه، ثم أطلق على البرّية مطلقا"، وأما الواحدي رحمه الله فأضاف فائدة قيّمة ختم بها قوله: "البدو بسيط الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد، وأصله من بدا يبدو بدوًا؛ إذا خرج إلى المراعي في الصحاري، ثم سمّي المكان باسم المصدر فيقال: بدو وحضر" (2008، ص252).

وتكمن هذه الفائدة القيّمة في إشارة صاحب التفسير البسيط إلى التطوّر الدلالي الذي عرفته لفظة البدو؛ حيث انتقلت من الدلالة على مصدر الفعل بدا، إلى المكان الذي يبدو فيه البادون، ويكونون فيه ظاهرين بارزين؛ وهو البسيط من الأرض، وإنما استحسنّا إيراد هذه الفائدة في هذا الموضع تمهيدا لتساؤلٍ هو محورُ أولى إشكاليات هذا البحث، وهو:

هل يؤيّد هذا التطوّر الدلالي للفظة البدو مذهبَ ابن خلدون الذي وافقه عليه أكثر الباحثين في علم الحضارة وغيرُهم؛ وهو أنّ "البدو أصلٌ للمُدن والحضر، وسابقٌ عليهما" (ابن خلدون، 1988، ص152)؟

ووجه هذا التساؤل هو أنّ هذا التطوّر الدلالي إنما لحق لفظة البدو لا لفظة الحضر؛ فلم أقف على من أشار ولو من بعيد إلى أنّ لفظة الحضر انتقلت من الدلالة على الفعل إلى الدلالة على المكان، بل كلّهم متفقون على أنّها من مادّة "حضر يحضر حضورا وحضارة: نقيض المغيب والغيبة..، والحضر: خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي..، والحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي: المقيم بالبادية.."

(ابن منظور، 1993، ج4، ص196)، قال ابن فارس: "الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، وورود ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الأصل واحدا"(ابن فارس، 1979، ج2، ص75).

فهل يمكننا القول إنّ أوّل نمط اجتماعي عرفه الإنسان هو البداوة؛ انطلاقا من ملاحظة التطور الدلالي الذي عرفته لفظة البدو دون[1] لفظة الحضر، على الرغم من كونهما ظلتا متقابلتين مترافقتين سواء أتعلق الأمر بواقع الناس أم بمعاجم اللغة وغيرها من الكتب والمصنفات التي تحدثت عن البداوة أو الحضارة، أو كلتيهما، وهذا ما يوافق مذهب ابن خلدون وتابعه عليه أكثر العلماء والباحثين في علوم الحضارة والاجتماع وغيرها؟

على الرغم من أنّ صاحب المقدّمة ارتكز في نظريته المتعلقة بتفرّع الحضارة عن البداوة على مرتكَزٍ عقلي قويٍّ؛ هو أنّ غاية مَطالب سكّان البادية هي ضرورات الحياة، بينما يروم الحضر تحصيل مطالب كمالية، وأسبابٍ تحقّق لهم مكاسب غير ضرورية، وتهيّئ لهم حياة ترَف، ودَعَةٍ، ومتعة، وهناء؛ "فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة" (ابن خلدون، ص152)، واستشهد على ذلك بقوله: "إذا فتّشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر؛ وذلك يدلُّ على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها فتفهمه"(ابن خلدون، ص153)، على الرغم من ذلك فإنّنا لا نعتبر هذا المرتكز ولا ما استلهمناه من كلام الواحدي آنف الذكر كافيًا للجزم بأنّ البداوة سابقة للحضارة، أو أنّ هذه متفرّعة عن تلك؛ لأنّنا نعتقد أنّ هذه الفرضية أثقل من أن يُكتفى في إثباتها بمجرد الظنّ والتخمين، بل لابدّ لذلك من شهادات تاريخية موثّقة مؤكّدة، أو نصوص ثابتة من أخبار الوحي المعصومة؛ المتمثلة في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّهﷺ الثابتة المسندة.

ومادام الأمر كذلك فلقد كان يسَعنا أن نضرب عن هذه المسألة صفحًا، ولا نورّط أنفسنا في التعرَّض لتهمة الاعتراض على قامةٍ علمية كابن خلدون، وبخاصّة بعدما عرفته نظريته هاته من رواج وتأييد من أكثر الباحثين في مجال الحضارة والأنثروبولوجيا وغيرهما من العلوم الإنسانية الأخرى، غير أنّنا ارتأينا أن نثير هذه المسألة هنا لغايتين اثنتين:

---

[1] يأتي معنا بيان أنّ مصطلح الحضارة عرف هو الآخر تطوّرا دلاليا؛ انتقل فيه من الدلالة على الحضور والشهود إلى الدلالة على المدنية، والنظام، والرقي، والتقدّم في مختلف مجالات حياة الإنسان، وهو ما يقابل الهمجية، والوحشية، والتخلف، والرعونة، غير أنّ ذلك لم يمنع من ذكر هذه الفرضية؛ أنّ انتقال دلالة البدو من معنى المصدر إلى معنى اسم المكان قد يكون صالحا لأن يُفهم منه أنّه لم يكن في الزمن الأول إلا بداوة، ثم بعد ذلك ظهرت الحضارة، ولو كان خلاف ذلك لذُكر مع هذا التطور الدلالي للفظة البدو تطوّر دلالي مقابل للفظة الحضر، على الأقلّ مجاراةً للاستعمال المطّرد في كتب اللغة والأدب، والمتمثل في المقابلة الدائمة بين ألفاظ مادة بدا بما يماثلها وزنًا من ألفاظ مادة حضر؛ بدو وحضر، بادية وحاضرة، بداوة وحضارة وهكذا. وسيتبيّن لنا بعد قليل ضعف هذه الفرضية، وما يسبح في فلكها من أقوالٍ تجزم بتقدّم البداوة على الحضارة أو العكس؛ لعدم وجود الدليل القاطع على ذلك، والله تعالى أعلم.

الأولى هي بيانُ أنّ الخطّة التي ارتضيناها لأنفسنا في هذا البحث هي أن لا نقبل أيّ رأي أو مقولة إلا إذا استند إلى أدلّة قويّة، وحجج مقنعة.

و**الغاية الأخرى** هي تسليط الضوء على حقيقة مؤسفة ومؤلمة، لها ارتباط وثيق بهذه المسألة؛ هي انزلاق كثير من الباحثين في هوّات سحيقة من المجازفات العلمية، والمبالغات الخيالية، تتعلّق بحياة الإنسان الأوّل، وأنظمة عيشه، وكيف أنّ كثيرا من المؤرخين والمفكّرين بلغ بهم استبعاد أن يكون لذلك الإنسان قدرةٌ على تدبير شؤونه الأسرية، والاجتماعية، والإدارية، ونحوها، أن زعموا أنّه كان عليه أن يعيش آلاف السنين ليتعلّم كيف يخطّ بالقلم، ويدبّر شؤون نفسه كما ينبغي[1]، وحسبُنا من هذه المنزلقات الفكرية تلك الفرية الصلعاء التي تبنّتها بعض دوائر المعارف، ومراكز البحث العلمي، وانطلت على كثير من الشعوب، بما فيها الشعوب الإسلامية؛ والمتمثّلة في فكرة الإنسان البدائيّ، أو المتخلّف، أو الحجريّ، أو نحو ذلك من المزاعم التي سوّقها مؤرّخون غربيون، الله أعلم بمدى سلامة مقاصدهم، وراجت على أجيال من الباحثين وغير الباحثين حتى أوشكت أن تكون بمثابة المسلّمات العلمية، والحقائق الثابتة القطعية، مع أنّها لم تقم على أساس علميّ صحيح، ولا استندت إلى أدلّة صحيحة مقنعة.

ولسنا نقصد هنا من قريب ولا من بعيد رائدَ الدراسات الحضارية والاجتماعية عبد الرحمان بن خلدون رحمه الله، ولا غيره من العلماء والباحثين؛ بل غاية ما في هذا التذكيرِ تنبيهُ القائمين على مخاطبة العقل المسلم إلى ضرورة تصحيح هذه المفاهيم، وضبط عملية التفكير فيه بشكل صحيح؛ بحيث لا يُقبَل شيء من الأفكار والقضايا إلا بدليله وحجّته، ومن ذلك ما نناقشه في هذه السطور من أسبقية الحياة البدوية على الحياة الحضرية، وأنّ البدو أصل الحضر، ولمزيد من التوضيح نطرح هذين التساؤلين الهامّين:

التساؤل الأوّل: أليس الإنسان الأوّل الذي يصفه كثير من المؤرخين بالبِدائيِّ، والمتخلّف، والمتخلّق بأخلاق البهائم، ونحو ذلك من الأوصاف المبالغ فيها، هو آدمﷺ وذرّيته؟ هل عندنا دليل ثابت من حفريات محفوظة، ونقوش سلمت من التلف والضياع طيلة ما بيننا وبين زمنهﷺ من قرون متطاولة، أو نصّ شرعي واضح الدلالة على أنّ عادة الحياة الاجتماعية الإنسانية أن تنشأ في البادية ثمّ يتحوّل أصحابها إلى المدن؛ تطلّبا لرفه العيش، وراحة البدن؟

السؤال الثاني: ألا يدلّ قول اللغويين والمفسرين وغيرهم في تعريف مادّة بدا يبدو.. إن معناها: صار إلى البادية، أو خرج إلى المراعي في الصحاري، أو نزل البادية..، وكلُّها أساليب تعبّر عن مقصود واحد، أنّه كان قبل ذلك في حاضرة؟ كيف يكون باديا ابتداءً وهو لم يصحّ أن يقال عنه إنّه بدا إلا لمّا ترك القرى والتجمعات السكانية القارّة، وانتقل إلى البسيط من الأرض، والمكان الظاهر البارز من بعيد؟

---

[1] ذُكرت بعض هذه الأقوال في مقال للباحث، بعنوان: نشأة الخط العربي بين التوقيف والاصطلاح، نشرته المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 13، العدد 02، ديسمبر 2018، ابتداء من الصفحة: 143.

أضع هذه الإشكالية بين أيدي الباحثين، ولا أزعم أنّ لي فيها رأيًا، أو قدرة على حلّها، وإثباتِ وجه الصواب فيها، غير أنّي لا أخفي أنّ القلبَ يميل إلى أسبقية الحضارة على البداوة:

– استئناسا بأصلٍ عامّ هو الغاية الكبرى من الخلق والإيجاد لعالم الإنسان؛ وهي تحقيق العبودية لله تبارك وتعالى، والتي لا تتحقق إلا بإرسال الرسل، والرسلُ –عليهم السلام–، كما سيأتي معنا قولُ عامّة أهل التفسير، لا يُبعثون إلا في المدن والحواضر.

– وانطلاقًا من قناعة راسخة حول غريزة الإنسان الأوّل، وأنّها –كأيِّ غريزة إنسانية أخرى، ولو بعد آلاف السنين– مركّبةٌ على صفات جبلّية، وقوًى فطريةٍ، من أهمّها أنّها: تستحسن الحسن، وتستقبح القبيح، وتميل إلى الدّعة والهناء، وتكره الشقاء والعناء، وتحبّ الأُنس؛ ولذلك قال من قال إنّ الإنسان إنما سمّي إنسانا لأنه يأنس بغيره[1]، وهذا معلوم شرعًا وعقلا وحسًّا ومشاهدة[2]؛ فلماذا إذن نفترض أنّ الإنسان الأوّل، أو غيره، كان عليه أن يمرّ بمرحلةٍ يَقنع فيها بالضروري من أسباب العيش، ويتحمّل في سبيل ذلك الجفاء والغلظة، ثم يترقّى بعد ذلك إلى التفكير في تأسيس حضارة ينعم فيها بعيش هنيء، وإقامة مستقرّة، وظرافة خلق؟ ومع ذلك فإنني لا أجزم بهذا الرأي، ولا أجدني مقتنعًا بالرأي الآخر، والله تعالى أعلم.

نمرّ الآن إلى الإشكال الثاني من الإشكالات التي سُوّدت لها صفحات هذا المقال، ومحلّه بعد الكلام عن التعريف الاصطلاحي لكلّ من مصطلحي: الحضارة البداوة.

2. 2. التعريف الاصطلاحي للحضارة والبداوة

إنّ الغاية من وضع الحدود والتعريفات هي نقلُ التصوّرات والمفاهيم بعبارات دقيقة مختارة؛ لئلا يتيه الباحثون عن ماهية الأشياء واصطلاحات العلماء وأرباب الفنون، ولذلك فإنّه على قدر تقارب الرؤى والتصورات للمصطلح الواحد تتقارب التعريفات الموضوعة له، وتقلُّ الفروقات بينها، وتضيق مساحات التباين التي تفصل بين كل تعريف وآخر منها. والعكس بالعكس؛ فكلما كثرت تعريفات مصطلح واحد، دلّ ذلك على تباعد تصوّرات أصحابها له، وعلى إشكاليةٍ مصطلحية ناشئة عن أسبابٍ ترجع في الغالب إلى مرجعيات المعرّفين، وذهنياتهم المتعدّدة، التي تصل أحيانا إلى حدّ التناقض والتضارب، الأمر الذي يسهم

---

[1] جاء في نهاية الأرب: "وحجة هذا المذهب وقوع الأنس على الناس، فاشتقاقه من الأنس نقيض الوحشة؛ لأن بعضهم يأنس إلى بعض، وبه أخذ بعض الشعراء في قوله: وما سمّي الإنسان إلا لأنسه *** ولا القلب إلا أنه يتقلّب"، انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري، أحمد بن عبد الوهاب: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ، ج2، ص7.

[2] القول بأنّ الإنسان يأنس بغيره، ويستوحش من الوحدة والعزلة لا يُفهم منه الجزم بصحّة ما نقل النويري قريبا عن بعضهم أنّهم يُرجعون تسمية الإنسان إلى هذا الأمر؛ فهناك أقوال أخرى، أشهرها ما أخرجه الطبراني في معجمه الصغير عن ابن عباسﷺ بإسناد صحيح أنه قال: «إنما سُمي الإنسان إنسانا لأنه عُهد إليه فنسي»، انظر: المعجم الصغير: للطبراني، سليمان بن أحمد، تحقيق: محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت – عمان، ط1، 1405هـ – 1985م، رقم: 925، ج2، ص140. وهذا القول هو اختيار كثير من أهل العلم، والله أعلم.

في إحداث فوضى عارمة على مستوى الأفكار لدى الباحثين ضمن نطاق هذا المصطلح خاصّة، ولدى القرّاء والمتابعين لمجاله على وجه العموم.

وإذا كانت هذه الفوضى قد حصل منها شيء في تعريف كثير من المصطلحات المعاصرة؛ فبلغت تعريفاتها عشرة تعريفات مثلا، أو أكثر أو أقلّ، مما يجعل الباحث في حيرةٍ وقلق أثناء دراسته لأحد هذه المصطلحات، فإنّ مصطلح الحضارة قد نال حظًّا وافرا من هذه المعضلة؛ فكثُرت تعريفاته حتى فاقت المائة تعريف، بل عدَّها بعضهم بالمئات[1]، وقد يبدو للقارئ الكريم أنّ هذا الازدحام الشديد الذي عرفته عملية البحث عن تعريف اصطلاحي للحضارة هو محور الإشكالية التي نعرضها في هذا المطلب، وليس الأمر كذلك؛ فإشكاليتنا هذه المرة سؤالٌ هو: أين نجد تعريفا اصطلاحيا للبداوة؟

صحيح أنّه ليس بالضرورة أن يكون لأيّ لفظة تعريفٌ اصطلاحي، وصحيحٌ أيضا أنّ كثيرا من المصطلحات يُكتفى في تعريفها بإيراد معناها اللغوي، ولكننا نتحدث هنا عن مصطلحٍ ظلَّ طيلة قرون عديدة يرافق مصطلح الحضارة، المصطلحَ الذي لاقى اهتمامًا مبالغا فيه من حيث التعريف والتنظير والتأسيس..، فكيف يُعقل والحالة هذه أن يرجع الباحث بعد طواف طويل على كتب التعريفات الحديثة والمعاصرة وليس في يده محاولة واحدة لتعريف البداوة تعريفًا اصطلاحيا؟

إنّنا نعتقد أنّ التطور الدلالي الذي عرفه مصطلح الحضارة؛ من الدلالة على مقابل البداوة في خصوص الإقامة في المدن والأمصار إلى ما يقابل الهمجيّة، والرعونة، والوحشية، والتخلُّف..، هو واحد من أكثر الأسباب تغييبا لمصطلح البداوة من كتب المحدثين والمعاصرين، ولثقافة البداوة، ونمط معيشتها من اهتمامات جماهير الناس اليوم، عربهم وعجمهم، وليس في كلامنا هذا أدنى دعوة إلى الإعلاء من شأن البداوة، ولا إلى التنفير من سكنى المدن والحواضر؛ وإنّما نريد فيما يستقبلنا من سطور أن نصحّح العلاقة التي بين البداوة والحضارة، ونحدّد المنطلقات الأساسية الصحيحة التي ينبغي الصدور منها في أيّ حال يعيشها المسلم، أو ظرفٍ يلمّ به.

وإذا كان ابن خلدون، وهو مِن أوائل من أحاط الحضارة بوافر عنايته علمًا قائما بذاته، قد أنصفَ البداوة إلى حدّ بعيد؛ حين أشاد ببعض فضائلها، وصرّح بأنّ أهلها أقرب الناس إلى الخير، وأكثرهم شجاعة، وكرما، ومروءة، ونحو ذلك (ابن خلدون، 1988، ص153، 154، 159)، ووافقه على ذلك بعض المفكرين البارزين كمالك بن نبي رحمه الله (ابن نبي، 1993، ص179)، فإنّ أكثر الدراسات المعاصرة المتعلقة بالحضارة تتحدث عنها وكأنّها جنّة الله في أرضه، وسرّ سعادة الشعوب، وعلامة تقدّمها وازدهارها، ولا نجد لأصحاب هذه الدراسات عذرا كافيا في الاكتفاء بذكر بعض مساوئ الحضارة،

---

[1] ومنهم الدكتور سيف صفاء عبدالكريم الدوري، في مقال له بعنوان: مفهوم الحضارة كما يصورها القرآن، منشور على شبكة الألوكة بتاريخ: 27/7/2013ميلادي - 1434/9/19 هجري، رابطه: https://www.alukah.net/library/0/58026/

ومنها ما أسهب فيه ابن خلدون وغيره من بيان الثمار السيئة للانغماس في ترف الحضارة من مجون، وخنوع، وإجرام، ونحو ذلك، لا نعتبر هذا عذرا كافيا؛ لأننا نعتقد أنه يلزم مع ذلك بيان أسباب تفضيل الحضارة على البداوة، وربط الناس بها ليتحقق لهم بذلك ثلاثة أهداف ثمينة، يَنعم بها عيشُهم، وتسعد بها حياتهم حاضرين كانوا أم بادين، هي:

– المحافظة على هذه الأسباب، وتقويتُها، والسهر على صيانتها وتعزيزها.

– الإفادة من فضائل البادية، وعدم حرمان الناس منها، من غير إفراط ولا تفريط.

– توطين النفس على ضرورة الانتقال من الحضارة إلى البداوة إذا لزم ذلك.

نعود إلى مسألة انعدام تعريف اصطلاحي للبداوة في كتب المحْدثين والمعاصرين، وننبّه على أنّ الغرض من تسليط الضوء على هذه المسألة هو الإشارة إلى أنّ العلاقة بين البداوة والحضارة عند القدماء كانت واضحة، والحكم بينهما كان عادلا مؤسَّسا؛ فقد اكتفوا بتعريف كلّ منهما تعريفا لغويا، والتزموا طريقة القرآن الكريم والسنة النبوية في تفضيل جنس الحضارة على جنس البداوة، وعدم إغفال ما للبداوة من فضائل، وأنّها تكون ملجأً للمؤمن في حالات استثنائية يأتي الكلام عنها قريبا إن شاء الله تعالى. بينما غالى أكثر المعاصرين في الإشادة بالحضارة، والاحتفاء بها، ومدحها، حتى أورثهم ذلك إغفالا يكاد يكون تامًّا للكلام عن البداوة، ولو مع التنبيه على مساوئها، والتذكير بنهي الشريعة عن سكناها، وقد يقول قائل أليس كافيًا أن يُجمَل القول في ذمّ البداوة، والتحذير من سكناها، والانصراف إلى ما يستحق التفصيل والإطناب، وهو الكلام عن الحضارة ومزاياها وما تتطلبه من أمور وأسباب؟

والجواب عن هذا السؤال من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: هو أنّنا لا نسلّم بأنّ الكلام عن البداوة يكفيه إجمال وتعميم، بينما يستلزم الكلام عن الحضارة تفصيلا وتخصيصا؛ إذ لم يزل في هذه الدنيا أهل بدو وأهل حضر منذ أقدم العصور، ولئن تقبّل المنصف تفاوتًا في الاهتمام بين الكلام عن البداوة والكلام عن الحضارة، فإنه يصعب عليه تقبُّل الانصراف عن العناية بدراسة أحوال البداوة بالكلية إلى العناية بدراسة أحوال الحضارة، وأسسها، وسائر متعلقاتها.

الوجه الثاني هو بمثابة مؤكّد لسابقه؛ وهو أنّ الشريعة الإسلامية وإن كانت نهت –كما سيأتي تفصيله قريبا– عن سكنى البوادي، وحذّرت منها، إلا أنّها لم تُغفل تنظيم حياة أهل البادية؛ بل شرعت لهم من القوانين والأحكام ما ينتظم به عيشهم، وتتحقق سعادتهم الدينية والدنيوية.

وأما **الوجه الثالث** فهو أنّ حياة الناس متجدّدة، وأحداثهم غير منتهية، وما أكثر ما تدعوهم الحاجة أو الضرورة إلى سكنى البوادي، أو هجران الحواضر؛ فكان لابدّ أن تحظى حياة البادية بنصيب كافٍ من اهتمامات الباحثين، ودراساتهم وبحوثهم.

وانطلاقا مما سبق نحاول في المبحث الآتي بسط القول في بيان نهي الشريعة عن سكنى البوادي، وعلّة هذا النهي، وما يُستفاد من ذلك في كلتا حالتي الإنسان: البداوة والحضارة.

3. موقف الشريعة من سكنى البادية

3. 1. نهي الشريعة عن سكنى البادية

من المعلوم شرعا وعقلا وواقعًا أنّ الشرائع السماوية قاطبة، وشريعة نبيّنا محمدﷺ على وجه الخصوص، جاءت لتحقيق مصالح العباد؛ بجلب المنافع لهم، ودفع المفاسد عنهم، في كلّ مناحي الحياة ومجالاتها المختلفة، وبخاصّةٍ ما يتعلق بالمصالح الدينية الشرعية، ومن أهمّها أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وسبلُ إخراج الناس من ظلمات الشرك والجهل والضلال وسيئ الطباع، إلى نور التوحيد والعلم والهداية وحسن الأخلاق، ورفيع الآداب؛ ومن أوضح الأمثلة على هذا أنّ المولى تبارك وتعالى اختار لنبيّهﷺ مكّة المكرمة يعرض فيها دينه، ويدعو الناس إلى ربّه جل وعز؛ لِما كانت تتميز به من صفات وخصائص تجعلها أَولى من غيرها باحتضان هذه الدعوة المباركة، ومن أبرز هذه الخصائص أنّها كانت أكبر القرى وأعظمها، وأكثرها استقطابًا للزائرين، واستضافة للوافدين؛ ولذلك وصفها ربّ العالمين بأنّها أمّ القرى فقال جلّ ذكره: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: 92]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: 07]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [القصص: 59].

ولم يكن اختصاص مكّة المكرمة بهذا الوصف راجعًا إلى كثرة سكّانها وزوّارها، وتشعّب عمرانها وأسواقها ونواديها وحسب؛ بل لأنّ شأن القرى العظمى، والحواضر الكبرى أن تكون مأوى أهل الفضل والنُّبل، ومثوى ذوي الهيئات والمكرمات؛ لما عُلم من حال هؤلاء، وحرصهم الشديد على تخيُّر أماكن الإقامة، ومواطن العيش، قال الشوكاني رحمه الله: "ومعنى أمّها: أكبرها وأعظمها، وخصّ الأعظم منها بالبعثة إليها لأن فيها أشراف القوم، وأهل الفهم والرأي، وفيها: الملوك والأكابر، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى" (الشوكاني، 1993، ج4، ص209)، وقال أبو السعود رحمه الله: "أي في أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها؛ لكون أهلها أفطن وأنبل" (أبو السعود، د.ت، ج7، ص20).

ولم يكن هذا المنهج الربّاني الحكيم في اصطفاء المكان المناسب لإرسال الرسل وإنزال الكتب خاصًّا بمكة المكرمة، وإن كانت هي أعظم القرى شرفًا، وأرفعها منزلة؛ بل تعدّاها إلى كل القرى التي ابتعث الله تعالى فيها أنبياءه ورسله؛ فلا يُعرَف أنّ نبيًّا من الأنبياء بعثه الله تعالى في بادية أو قرية فيها عدد قليل من الناس مع وجود غيرها من القرى العامرة، ولقد فهم أكثر أهل التفسير من قول الله عزّ وجل: ﴿ وَمَآ

أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾[يوسف: 109] أنّ فيه دليلا على أنّه جلّت حكمته "لم يبعث نبيا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو، ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم" (القرطبي، 1964، ج9، ص274)، وقد يصحّ أن يورَد في هذا السياق قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]؛ فذكر المشي في الأسواق بعد أسلوب الحصر يُشعر أنّ النبوة إنما جُعلت في أهل المدن والحواضر، لا في أهل البوادي والأرياف، والله تعالى أعلم.

وإذا كان يصحّ أن نعتبر هذا القدر اليسير من بيان عناية الله تعالى بعباده، واختياره المدن والحواضر لرسالاته ومبعث رسله وأنبيائه، هو جانب جلب النفع لهم، فإنّ الشقّ الآخر من شقّي المقصد العام لنزول الشرائع وبعث الرسل، وهو دفع المفاسد عنهم يتمثّل في تحذيره سبحانه من سكنى البوادي، والإقامة بالأرياف؛ لما يترتب عليها من المفاسد الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة، ورد في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه الكريمﷺ بيانُ شيء منها؛ نرده فيما يأتي:

أولا: من القرآن الكريم

أصْرَح ما في كتاب الله تعالى من ذمّ للبداوة، وإشارة إلى أثرها السيء في أصحابها قوله سبحانه: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ ﴾[التوبة: 97].

وأمّا قوله جلّ وعلا: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ [يوسف: 100]، فعلى الرغم من أنّ بعض أهل العلم ذكروا في تفسيره أنّه يفيد ذمّ البداوة؛ فقال: ابن عطية رحمه الله: "قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ يعمّ جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى النعمة بسكنى الحاضرة" (ابن عطية، 2001، ص282)، وقال ابن عاشور رحمه الله: "وذِكر من البدو إظهارٌ لتمام النعمة؛ لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة" (ابن عاشور، 1984، ص58)، وقال المناوي رحمه الله: "وفيه النهي عن سكنى البادية ونحو ذلك..، وقد دل على ذلك النص القرآني قال تعالى حكاية عن يوسف ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾ [يوسف: 100]؛ فجعل مجيء إخوته من البدو من جملة إحسان الحق إليه وإليهم بحكم التبعية فهو ثناء على الحق بما فعل مع إخوته ومعه ومن ثم عد بعضهم النقل من الريف إلى مصر من النعم وحمده عليها" (المناوي، 1937، ص401)، إلا أنّ كون عامّة أهل التفسير لم يذكروا هذا التأويل، مع ما في الآية الكريمة من نسبة الإحسان إلى يوسفعليه السلام لا إلى إخوته وأبويه بنقلهم من البدو إلى الحضر منعني من نقل الجزم بدلالة الآية على ذمّ البداوة، والله تعالى أعلم بمراده من كلامه.

ثانيا: من السنة النبوية

أشهر النصوص النبوية الثابتة في ذمّ البداوة، والنهي عن سكناها قول النبيّﷺ: «**مَنْ سَكَنَ البادية جَفَا**» (أحمد، 1995، ج3، ص422)، وفي رواية أخرى للحديث: «**مَن بَدا جَفا**» (أحمد، ج30، ص584)، وقولهﷺ لثوبانرضي الله عنه: «**يَا ثَوبَانُ، لا تَسْكُنِ الكُفورَ؛ فإنَّ ساكنَ الكُفورِ كَسَاكنِ القُبُور**» (البخاري، 1989، ص203).

ولقد سارع الصحابةرضي الله عنهم –كعادتهم في الاستجابة لأوامر الشرع، وفهم مقاصده وأحكامه– إلى امتثال هذا التوجيه في حياتهم؛ فسكنوا الحواضر، واجتنبوا البوادي، وأوصى بعضهم بعضا بذلك؛ ومن ذلك أنّ عثمان بن عفّانرضي الله عنه لمّا بلغه أنّ أبا ذررضي الله عنه عازمٌ على الانتقال إلى الرَّبذة، أرسل إليه، وقدّم له نصيحة غالية قال فيها: «تَعَاهَدِ المدينةَ حتى لا تَرتدّ أَعْرابيًّا» (الطبري، 1967، ص284)، ونفهم من هذه الوصية الثمينة من ذي النّورينرضي الله عنه أنّ المرء مهما بلغ من العلم، والفضل، والأدب، والنُّبل، فإنّ انتقاله إلى البادية، وملازمته إيّاها: من شأنه أن يفسد من طباعه، وينقله إلى أخلاق الأعراب، وقسوتهم وجفائهم، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا كان هذا حال البداوة؟ وبعبارة أخرى: أيّ شيء يَفُوت المرءَ بانتقاله من الحاضرة إلى البادية يجعله ينتقل من الحلم، والعلم، والرفق، وحسن الخلق، ونحو ذلك إلى الجهل، والجفاء، وغلظة الطبع ونحوها؟

3. 2. العلّة من نهي الشريعة عن سكنى البادية

قبل مباحثة هذه المسألة نرجع قليلا إلى كلام المفسِّرَين: الشوكاني وأبي السعود في بيان معنى أمّ القرى، وسبب اختيار المولى تبارك وتعالى إيّاها لبعثة نبيّهﷺ؛ حيث ذكرا رحمهما الله تعالى، وذكر غيرهما أيضا أنّ ذلك راجعٌ إلى كون أهلها أشرف وأفطن وأنبل وأفهم، وصاغ الإمام القرطبي هذه الأوصاف في عبارة لطيفة مرت معنا جمع فيها بين دقّة الألفاظ، وحسن ترتيبها، وروعة العبارة، وجمال تركيبها؛ هي قوله رحمه الله: "أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم" (القرطبي، 1964، ج9، ص274)، غير أنّ ذلك لا يلزم منه أنّها لا تحتاج إلى توضيح، أو أنّ حسن ترتيب الألفاظ الأربعة التي تضمّنتها لا يمكن معه تفرُّع بعضها عن بعض، أو رجوعه إليه.

إننا إذ نناقش أسباب امتياز الحضارة عن البداوة، وأفضليتها عليها، فإننا نحاول معرفة السبب الرئيس في هذه الأفضلية، ومقصود الشريعة الغرّاء من ذمّ البداوة والنهي عن سكناها، وبما أنّنا نحسَب أنّ عبارة القرطبي رحمه الله الأخيرة جاءت من الحسن والدقة والشمول بحيث يمكن اعتبارها مجمَع الأوصاف التي ذكرها أهل العلم في بيان أسباب تفضيل الشريعة الحضارة على البداوة، فإننا نعتمد عليها في إعادة صياغة السؤال السابق كالآتي:

لماذا كان أهل البادية أقلَّ عقلا، وحلما، وفضلا، وعلما من أهل الحاضرة؟

وقد يقال هنا: ألم يكن الأولى أن يُصاغ الأسلوب بشكل يُبحث فيه عن أسباب كون أهل الحاضرة أكثر في هذه الأوصاف لا عن كون أهل البادية أقلّ فيها؟ والجواب عن هذا السؤال من وجهين اثنين:

الأول: أن النصوص الشرعية الثابتة في هذا الموضوع إنما جاءت في ذمّ البداوة والنهي عن سكناها، لا في الثناء على الحضارة والأمر بملازمتها؛ فكانت المنهجية العلمية مقتضيةً متابعةَ هذا الأسلوب، وإن كان الأمران متلازمين في الحقيقة.

والوجه الآخر أنّ فضائل الحضارة، وأسباب اتّصاف كثير من أهلها بالأوصاف الحميدة المختلفة، عقلية، وخلقية، ونحوها، معلومةٌ مستوفية نصيبها وزيادة من دراسات الباحثين والمفكرين، بخلاف البداوة التي يحسب الباحث أنّ حظّها من الدرس لا يزال قليلا، وبخاصة ما سُوِّدت له صفحات هذا المقال، وهو أسباب اتّصاف أكثر أهلها بالأوصاف الذميمة المختلفة، الفكرية، والخلقية، وغيرها.

وانطلاقًا من منهجِنا في دراسة مثل هذه المسائل الكبار، ويقينِنا من أنّ قَدرًا هائلا من التجاوزات الفكرية، والأخطاء العلمية التي حصلت في دراسة هذا الموضوع راجعةٌ إلى اعتماد أصحابها على مجرّد الرأي المجرّد عن الدليل، وربما بعض المنطلقات الإيديولوجية، والخلفيات الفكرية، فإنّنا سنركّز في تتبّع أطراف هذا الموضوع على ما ورد فيه من نصوص شرعية، وما شرحها به أهل العلم المتخصّصين، وفي مقدمتهم بلا شكّ أئمّة التفسير وشُرّاح الحديث، والبداية مع الآية الكريمة من سورة التوبة: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ ﴾ [التوبة: 97].

بعد تتبّع كتب التفسير تبيّن أنّ مجموع ما ذكره المفسرون من أسبابِ وصف الله تعالى للأعراب بهذه الأوصاف ترجع إلى سببين رئيسين:

الأوّل: هو البعد عن مجالس الخير؛ متمثلةً في حلق الذّكر، ومشاهدة العلماء، وسؤالهم، والتعلّم منهم؛ وأشهرُ مقولة تَناقلَها أهل التفسير في هذا الخصوص هي قول قتادة رحمه الله في بيان وصف هؤلاء الأعراب في الآية الكريمة: "هم أقل علمًا بالسُّنن" (الطبري، 2000، ص429)، ويأتي معنا ذكر بعض أقوال المفسرين التي تدلّ على هذا المعنى، ولكن بعد ذكر:

السبب الثاني لانطواء الأعراب وسكان البوادي عموما على الطباع السيئة، وفي مقدّمتها الإعراض عن الحقّ، ومجافاة أهله هو: قسوة قلوبهم، وغلظة طباعهم، وأورد بعض أهل التفسير وصفًا آخر هو التوحُّش، وبالغ الرازي والألوسي؛ فقال الأول: "أهل البدو يشبهون الوحوش" (الرازي، 1999، ص125)! وقال الآخر: "أصحاب البدو..أشبه شيء بالبهائم" (الألوسي، 1994، ج6، ص6)!، وهذان القولان وما شابههما كانت مبالغة أصحابها من جهتين اثنتين على الأقل: الأولى افتقارها إلى الدليل الشرعي المؤيّد لما ذهب أصحابها إليه، والأخرى أنّ واقع كثير من أهل البادية يثبت خلاف هذا المذهب، ويأتي معنا قريبا مزيد كلام عن هذه المسألة.

نعرض الآن أقوالا لبعض المفسرين اشتملت على ذكر سببيْ كون الأعراب أشدّ كفرًا ونفاقا معًا:

قال الطبري رحمه الله: "لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير؛ فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقلُّ علمًا بحقوق الله"(الطبري، 2000، ص429)، وقال القرطبي: "وقيل: لأنهم أقسى قلبا، وأجفى قولا، وأغلظ طبعا، وأبعد عن سماع التنزيل"(القرطبي، 1964، ج8، ص231)، وقال الزمخشري: "لجفائهم وقسوتهم وتوحُّشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء، ومعرفة الكتاب والسنة" (الزمخشري، 1987، ص303)، وقال أبو السعود: "لجفائهم، وقسوةِ قلوبهم، وتوحُّشهم، ونشئِهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم" (أبو السعود، د.ت، ج4، ص95)، وقال الشوكاني: "لأنهم أقسى قلبا، وأغلظ طبعا، وأجفى قولا، وأبعد عن سماع كتب الله، وما جاءت به رسله" (الشوكاني، 1993، ج2، ص450).

وأما من خالف هذه الطريقة في إرجاع كون الأعراب أشدّ كفرا ونفاقا إلى سببين اثنين فصنفان من أهل التفسير:

– صنف اكتفى بذكر سببٍ واحد، هو السبب الأول، ونذكر منهم مثلا: قتادة رحمه الله، وقد مرّت معنا قريبا مقولته الشهيرة: "هم أقل علمًا بالسُّنن"، والسمعاني، قال رحمه الله: "وهذا لبعدهم من سماع القرآن ومعرفة السنن" (السمعاني، 1997، ص340).

– وصنف آخر ذكر أصحابه أسبابًا عديدة؛ غير أنّها ترجع بالتأمّل إلى السببين المذكورين آنفا، ومِن هؤلاء:

الفخر الرازي؛ حيث ذكر خمسة أسباب لا تخرج عن السببين اللذين ذكرناهما، أوّلها هو ما تقدّم معنا من تشبيهه أهل البادية بالوحوش! وآخِرها قوله: "قابِلِ الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لتعرف الفرق بين أهل الحضر والبادية"(الرازي، 1999، ص125)! وبينهما ثلاثة أسباب لا داعي لتطويل المقام بذكرها، إلا أنني أشير إلى أنّ هذه الخمسة أسباب منها سبب واحد يندرج ضمن السبب الخاص بالتخلف عن مجالس العلم والذكر، والأربعة الباقية كلّها متعلقة بأمور مناخية، وعوامل بيئية طبيعية.

ومنهم الإمام السعدي رحمه الله؛ ذكر أنّ لذلك أسبابًا كثيرة، إلا أنّ أكثر كلامه كان في الحديث عن سبب واحد؛ هو البعد عن مجالس العلم الشرعي، ثم ختم كلامه بإشارة إلى السبب الآخر فقال: "ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال، وأشحُّ فيها" (السعدي، 2000، ص349)، وهذا قريب من أن يكون ناشئا عن فساد الطباع، وجشع القلوب، إلا أنّ اعتباره متفرّعًا عن هجران مجالس العلم وحلق الذكر قريب أيضا؛ لأنه ليس شيءٌ أنفع من تهذيب القلوب، ونفي الشحّ والحرص عنها مثلُ الفقه في الدين، ولو صحّ ذلك فإنّ كلام الشيخ السعدي رحمه الله كلّه يكون في بيان سببٍ واحد لكون الأعراب أشدّ كفرًا ونفاقا، هو التخلف عن مجالس العلم؛ فيكون عدم ذكره لأسباب أخرى اكتفاءً بذكر واحد منها، أو إشارة إلى أنّها جميعها متفرّعة عنه، راجعة في النهاية إليه، والله تعالى أعلم.

وقبل أن نمرّ إلى النصّ الثاني من النصوص الدالة على النهي عن سكنى البوادي، والتحذير منها، يحسُن بنا أن نتأمّل قول الله جلّ وعز: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ ﴾ [التوبة: 99]، ونتساءل قائلين: لو سلّمنا أنّ ما وصف الله تعالى به عموم الأعراب راجعٌ إلى مجرّد كونهم انعزلوا عن الناس، وخالطوا البهائم والوحوش، وامتهنوا الحرف القاسية، والأعمال الشاقّة؛ حتى قست قلوبهم، وجفت طبائعهم، وتوحّشت أخلاقهم..، فكيف نعقل عنه جلّ وعلا هذه الآية الكريمة بعد آية واحدة من ذمّ الأعراب، ووصفهم بهذه النعوت والأوصاف؟!

لاشكّ أن القول برجوع الحالة السيئة التي يكون عليها الأعراب وسكان البوادي والأرياف إلى غلظة طباعهم، وفظاظتهم فقط، دون ذكر السبب الآخر الذي هو بعدُهم عن مجالس العلم والذكر ضعيف جدًّا، بل ساقط من أساسه، وممّا يؤكّد ذلك قول الله عز وجل بعد وصفه للأعراب بأنّهم أشدّ كفرا ونفاقا: ﴿ وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾؛ فذِكرُ العلم في هذا السياق له دلالة واضحة على أنّ المسألة مرتبطة أشدّ الارتباط بالعلم، وهنا مسألة محورية هامّة، هي أنّ العلم الذي نتحدّث عنه هنا هو العلم الشرعي، لا أيّ علم آخر، مهما كانت حاجة الناس في دنياهم إليه، ومهما حقّقوا فيه من إنجازات وتطوّرات؛ لأنه قد تقرر عند أهل العلم بالشريعة أنّ العلم الممدوح في النصوص الشرعية إنما هو العلم الشرعي لا العلوم العقلية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والعلم الممدوح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء كما قال النبيﷺ: إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر(الترمذي، 1975، ص48) (ابن تيمية، 1995، ج11، ص396). وقال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: "وقوله عز وجل: ﴿ رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤ ﴾ [طه: 114].. المراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه" (ابن حجر، 1959، ج1، ص141). وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: "العلم الذي هو العلم المعتبر شرعا –أعني الذي مدح الله ورسولهﷺ أهله على الإطلاق– هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعا أو كرها" (الشاطبي، 1997، ص89)، وأقوال العلماء في هذا المعنى أكثر من أن تُحصى أو تُعدّ.

وعليه، فإنّ الحضارة الإسلامية هي التي تنبني على أسس أهمُّها على الإطلاق أن يكون فيها قدرٌ كاف من العناية بالعلوم الشرعية، وعقد المجالس لها، ودعوة الناس إليها، وتأكيدا لهذا المعنى نمرّ إلى النصّ الثاني من النصوص المنتخبة في الدلالة على النهي عن سكنى البوادي، والتحذير منها، وهو:

حديث النبيّﷺ: «**يا ثوبان، لا تسكن الكفور؛ فإن ساكن الكفور كساكن القبور**»! (البخاري، 1989، ص203) وقد تعمّدتُ أن لا أقف عند حديث النبيﷺ: «**من بدا جفا**» (أحمد، 1995، ج30، ص584)؛ لأنّه وإن كان عمدةً في هذا الباب، إلا أنّه أقربُ إلى بيان الأثر السيئ للتبدّي منه إلى ذكر علّة النهي عن ذلك، وبيانِ أسباب ظهور الآفات الرديئة، والطباع الغليظة في من سكن البادية، بينما ورد في حديث ثوبانﷺ قرينتان قويّتان في إثبات ما نقرّره في هذه السطور من إلزامية قيام الحضارة الإسلامية على أسس أوّلها وأهمّها وجود مجالس العلم الشرعي:

القرينة الأولى: في نهيهﷺ عن سكنى الكُفور.

و**القرينة الثانية**: اعتبارهﷺ ساكن الكفور كساكن القبور.

فإلى بيانٍ وجيز لدلالة هاتين القرينتين على ذلك:

أولا: **الكلام عن القرينة الأولى**؛ نهيُ النبيﷺ عن سكنى الكفور

الكُفور جمع كَفر، وهي كما ذكر أهل اللغة والعلم بالحديث: القرى البعيدة عن المدن، ومجتمعات المسلمين؛ قال الحربي: "الكُفورُ ما بعُد من الأرض عن الناس؛ فلا يمرُّ به أحد..، وأهل الشام يسمون القرية الكفر" (ابن الأثير، 1979، ص189)؛ ووجه دلالة هذه القرينة على ما ذكرنا هو أنّ الكَفر ليس من البوادي والأرياف، بل هو قرية ومحِلّة صغيرة، لا يقصدها الناس، ولا يمرّون بها كثيرا، وكونه قريةً يجعله مشابهًا الحاضرةَ من جهة استقرار ساكنيه، وعدم تنقّلهم في البوادي والأرياف تتبّعا للكلأ وأسباب العيش، وكونُ من يسكنونه محجوبين عن أنوار العلم، وينابيع الهدى يجعله مشابهًا البادية، متعدّيًا إليه حكم الشريعة في النهي عن سكناها؛ ولهذا كان شرح الإمام الأزهري لكلمة الكفور من أجود الشروح، وأكثرها استعمالا في كتب علماء اللغة والشريعة، وغيرهم؛ وهو قوله: "أراد بالكفور القرى النائية عن الأمصار ومجتمع أهل العلم والمسلمين؛ فالجهل عليهم أغلب، وهم إلى البدع والأهواء المضلة أسرع" (الأزهري، 2001، ص114).

وكلٌّ من شرح هذه اللفظة من أهل العلم ذكر مسألة البعد عن مجالس العلم الشرعي، فمنهم مثلا المازري، قال رحمه الله: "يعني القرى النائية عن الأمصار ومجتمع أهل العلم" (المازري، 1988، ص88)، وقال المناوي رحمه الله: "أي القرى البعيدة عن المدن التي هي مجمع العلماء والصلحاء" (المناوي، 1988، ص294)، وقال الصنعاني رحمه الله: "الكُفور: بضم الكاف والفاء: القرى؛ لأنها لا يشهد أهلُها الجماعات ولا الجُمَع" (الصنعاني، 2011، ص109)، وغير هؤلاء كثير.

ولعلّ الرجوع إلى المعنى اللغوي لمادة كفر؛ وهو الستر والتغطية، يفيدنا أيضا في معرفة سبب نهي الشريعة عن سكنى هذه القرى؛ فهي مغطّاةٌ مظلمة بسبب بعدها عن أنوار العلم الشرعي، وخلوّها من مصابيح الدجى؛ أهل العلم والصلاح.

القرينة الثانية؛ وهي قرينة تشبيه النبيﷺ ساكني الكفور بأهل القبور:

ذكر أهل العلم أقوالا متقاربة في بيان فائدة هذا التشبيه، تدور حول معنى واحد، هو أنّ سكّان الكفور "لبعدهم عن العلماء كالموتى؛ لجهلهم وقلّة تعهُّدهم لأمر دينهم" (المناوي، 1988، ص294)، قال الصنعاني(2011، ص109): "فيه نهيٌ عن سكون المحلات البعيدة عن الخيرات الأخروية من العلم والعمل؛ فشبّه ساكن القرى بأهل القبور لأن أهل القرى كالأموات لا يجدون عالِمًا ولا أمرًا دينيًا"ا.هـ قلت: وفي كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّهﷺ نصوص كثيرة فيها دلالة صريحةٌ على أنّ وحيَ الله تعالى المتمثل في كتابه سبحانه، وسنّة نبيّهﷺ، والعلوم المنبثقة عنهما، هو لقلب الإنسان بمثابة الروح للجسد؛ يحيى بوجودها، ويموت بزوالها؛ قال ربُّنا جلّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ ﴾ [الأنفال: 24]، وقال عزّ من قائل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ ﴾ [الشورى: 52]، وقالﷺ: «**مثلُ البيتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فيهِ، والبيتِ الذي لا يُذكر اللهُ فيهِ: مَثَلُ الحيِّ والميِّت**» (مسلم، د.ت، ج1، ص539)؛ فوحيُ الله تبارك وتعالى هو الروح الذي تحيا به القلوب، والنور الذي لا تحصل الهداية إلا به.

وعليه، فإنّ العلة الكبرى من نهي الشريعة عن سكنى البوادي والأرياف هي **كونها مظنّة البعد عن مجالس العلم، ومجامع الخير والذّكر**؛ لما عُرف عن أهل البدو من كثرة الترحال، وعدم القرار في مكان، مما يصعُب معه في الغالب وجود هذه المجالس، وفي مقدمتها بيوتُ الله عزّ وجل، ومجالس العلماء والصالحين، المشهود لهم بالعلم والاستقامة.

وإنّ مِن فقه علماء الشريعة عليهم رحمات الله تعالى الواسعة أنْ لم يكتفوا في دراسة حديث ثوبانﷺ ونظائره باستنباط حكم النهي عن سكنى البوادي، وما يلحق بها من الكفور والقرى المعزولة عن مجتمعات المسلمين؛ بل وسّعوا دائرة هذا الحكم ليشمل سكنى القرى التي يكون فيها عمران، وأسواق، وربما مراكز علم ونحوُها، إلا أنها لا تُقام فيها صلاة الجمعة؛ لما في هذا الملتقى الأسبوعي من النفع العظيم، والخير العميم لدين المسلمين ودنياهم؛ قال ابن رجب رحمه الله تعالى: "وقد نصّ أحمد على كراهة المقام بقرية لا يقام فيها الجمعة، وإن أقيمت فيها الجماعة" (ابن رجب، 1996، ص115).

فتأمّل دقّة هذا الفهم، وكيف أنّ ساعةً من الزّمان، بل أقلّ من ذلك، كره أئمّة الإسلام أن يفوّت المسلم على نفسه ما فيها من العلم والهدى؛ لتعلم سرَّ ثناء الله تعالى على بعض الأعراب كما تقدّم معنا في

الآية من سورة التوبة، وأنّه راجعٌ إلى ما أحيى الله تعالى به قلوبهم، وليّن به طباعهم من العلم النافع والعمل الصالح، ولِتُدركَ أمرًا في غاية الأهمّية؛ هو أنّ بين أهل البادية أنفسهم تفاوتا عظيما، وتبايُنا كبيرا في مقدار ما يصيب كلاًّ منهم من جفاء الطبع وقسوة القلب، بحسب ما بينهم من التفاوت في إقبالهم على طلب العلوم الشرعية، وعملهم بما فيها، حتى إنّك لتجد البادييْن يعيشان في بادية واحدة، وربما في بيت واحد، بينهما كما بين السماء والأرض فيما نتحدّث عنه من مسألة الجفاء، وغلظة الطباع، والإعراض عن دعوة الحقّ، ومعاداة أهلها ومخاشنتهم.

وإذ نجزم في هذا السياق بأنّ سبب تبلّد أذهان الأعراب، وقسوة قلوبهم، وغلظة طباعهم هو بعدُهم عن مجالس العلم الشرعي، فإنّنا نتوقّع أن يُعترض على هذا القول باعتراضين وجيهين هما:

– أنّ كثيرا من علماء الشريعة أرجعوا ذلك إلى طبيعة البيئة التي يسكنونها، والأشغال التي يعملونها، والعزلة التي يعيشونها؛ وحتى مَن ذكر البعد عن مجالس العلماء منهم فإنّه قرن معه السبب الآخر، وربما جعله متقدّمًا عليه.

– والاعتراض الآخر هو ما قد يُستدلّ به من أحوال الأمم الكافرة، والحضارات غير الإسلامية التي لا أثر فيها لمجالس العلم الشرعي، بل فيها ما يناقض ما تدعو إليه، ومع ذلك فإنّها عرفت من المدنية، والرقيّ، والتحضُّر، والتطوّر ما يشهد به القاصي والداني؛ فكيف نوفّق بين ذلك وبين القول بأنّ الحضارة الحقيقية لا تقوم إلا على أساس العلم الشرعي، ولا سعادة لأصحابها إلا في رحابه؟ نحاول الإجابة عن هذين الاعتراضين فيما تبقّى من هذا المقال:

4. حاجة البداوة والحضارة إلى العلم الشرعي

4. 1. حاجة البداوة إلى العلم الشرعي

ليس الغرض من ذكر حاجة البداوة إلى مجالس العلم الشرعي مجرد إثبات أنّ أهل البادية يحتاجون إلى من يفقّههم في أمور دينهم، ويذكّرهم بربّهم جلّ وعلا؛ فهم وغيرُهم من أهل الحاضرة في هذا الأمر سواء، وإن كان أهل البادية أحوج إلى ذلك نظرا لما يحيط بهم من أسباب الغفلة والتقصير في أداء حقّ الله تعالى عليهم علمًا وعملا، وإنما الغرض هو بيان أنّ أهل البادية إنما أصاب منهم ما أصابه من الغلظة والقسوة والجفاء بسبب تفريطه في حضور مجالس العلم، والسعي إلى التفقه في الدين، والعمل بمقتضى ما يتعلّم، وهذا الكلام هو ما قد ينشأ توهّم التعارض بضمّه إلى كلام أهل العلم الذي فيه أنّ سبب هذه الغلظة والقسوة والجفاء إنما هو البعد عن المدن والأمصار، واستبدالُ الوحدة، ورعي بهيمة الأنعام، وأحيانًا مصاحبة بعض وحوش البرية بمخالطة الناس، والتعامل معهم، والإفادة منهم.

والحقُّ أنّه لا تعارض بين القولَين في الجملة؛ إذ لم ننفِ أن يكون للعامل البيئي تأثيره في سلوك الإنسان، وجفائه، وغلظة طباعه، وأمّا من حيث التفصيل فيمكننا أن نقيّد ما أطلقه بعض أهل العلم في

القول برجوع فساد طباع عموم أهل البادية، وقسوة قلوبهم إلى سببين هما: البعد عن مجالس العلم، وترك مخالطة الناس في الأمصار، وربما إلى سبب واحد هو قلّة مخالطة الناس؛ كما ذكر ابن الأثير في شرح حديث «من بدا جفا»، حيث قال: "أي من سكن البادية غلظ طبعه لقلة مخالطة الناس" (ابن الأثير، 1979، ج1، ص281)، بإيراد تساؤلين هامّين، ثمّ الإجابة عنهما:

التساؤل الأول: هل ورد في كتاب الله تعالى، أو سنّة نبيّهﷺ ما يدلّ على أنّ اعتزال الناس هو سبب غلظة الطباع، وقسوة القلوب، والإعراض عن الحقّ والهدى؟

و**التساؤل الثاني**: كيف نفسّر وجود أناسٍ من أهل البادية فيهم سكينة، ورفق، وعلم، وفضل، وآخرين كثيرين جدا من أهل الحاضرة لا يُعرف عنهم إلا الجفاء، والرعونة، والجهل، وغلظة الطباع؟

الإجابة عن التساؤل الأول: بعد البحث الطويل في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّهﷺ، تبيّن أن مجموع ما ورد في ذمّ البداوة، ومخاطبة أهل البادية إنما دار حول محور واحد؛ هو مسألة طلب العلم الشرعي، والتفقه في الدين، ويمكن أن نميّز بين نوعين من هذه النصوص، نصوص عامّة، ونصوص خاصة بهذا الموضوع:

أمّا النصوص الشرعية العامة فهي قسمان؛ قسم مرّ معنا نماذج عنه، وهو الذي يدلّ على أنّ العلم الشرعي هو روح القلوب، وغذاؤها الذي لا تعيش إلا به.

وقسمٌ آخر يدلّ على أنّ الجهل بأحكام الشريعة، والبعد عن مجالس العلم والتذكير من شأنه أن يورث القلوب قسوةً، والطباع جفاءً، والنفوس إعراضًا عن الهدى والرشاد؛ ومن أمثلته قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، وقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: 24]، ونظائرهما كثيرة في الكتاب والسنة.

وأمّا النصوص الشرعية التي يظهر أنّ فيها دلالة صريحة خاصّة على ارتباط النهي عن سكنى البوادي بخلوّها من مجالس العلم الشرعي، وحلق الذكر والوعظ، ودورانه معه حيث دار، فيمكن والله تعالى أعلم تصنيفها ثلاثة أصناف:

– أمّا **الصنف الأول** فيتمثّل في هدي النبيﷺ في توجيه أهل البادية؛ فلم تكن عنايتهﷺ متوجّهة إلى مسألة الاختلاط بالناس، وتعاهد المدن والأمصار تجنّبا لقسوة البادية، وشدّة أعمالها على أصحابها، مع الاعتراف بأهمية ذلك، وتأثيره في طباع المرء كما سيأتي قريبا؛ بل كانﷺ يذكّرهم بأمور دينهم، ويعلّمهم شرع ربّهم جلّ وعلا:

فمن ذلك قولهﷺ لأبي سعيد الخدريرضي الله عنه: «**إِنِي أَرَاكَ تُحِبُّ الغَنَمَ والبَادِيَةَ؛ فإذَا كُنْتَ في غَنَمِكَ، أو بَادِيَتِكَ، فأَذَّنْتَ بالصّلاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بالنِّدَاءِ؛ فَإنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المؤَذِّنِ جنٌّ وَلا إنْسٌ ولا شَيْءٌ، إلا شَهِدَ لَه يَوْمَ القِيَامَةِ**» (البخاري، 2001، ص125).

وقولهﷺ: «**مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**» قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي بِالْجَمَاعَةِ: الْجَمَاعَةَ فِي الصَّلَاةِ (النسائي، 2001، ج1، ص445).

– وأمّا **الصنف الثاني** فهو نصوصٌ حذّر فيها رسول اللهﷺ أهل البادية من التخلّف عن الجمعات لغير سبب، وتفويت ما فيها من العلم والوعظ، ومما قد يترتّب على ذلك من عواقب وخيمة على قلوبهم وطباعهم، كما في قولهﷺ: «**أَلَا هَلْ عَسَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ الصُّبَّةَ مِنَ الْغَنَمِ عَلَى رَأْسِ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ، فَيَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْكَلَأُ، فَيَرْتَفِعَ، ثُمَّ تَجِيءُ الْجُمُعَةُ فَلَا يَجِيءُ وَلَا يَشْهَدُهَ، وَتَجِيءُ الْجُمُعَةُ فَلَا يَشْهَدُهَا، وَتَجِيءُ الْجُمُعَةُ فَلَا يَشْهَدُهَا، حَتَّى يُطْبَعَ عَلَى قَلْبِهِ**» (ابن ماجه، 2009، ص518)؛ ففيه دليل على أنّ النبيﷺ كان حريصا أشدّ الحرص على أن لا ينقطع أهل البوادي عن مجالس العلم والذكر؛ فيُثمرَ ذلك فيهم غلظةَ طبع، وقسوة قلب، وجفاء خلُق، ولعلّ في ذكر طبع القلب في آخر الحديث إشارةً إلى أنّ هُجران مجالس العلم هو ما يكون سببا في ظهور الآفات الخلقية الأخرى، لا العكس، مع الاعتراف بأنّ هذه الآفات السيئة تسهم هي الأخرى في إبعاد من ابتُلي بها عن مجالس العلم، وتنفيره منها، وعلى نفسها تجني براقش.

– **الصنف الثالث** من النصوص الشرعية التي تدلّ على أنّ جفاء أهل البادية إنما يرجع إلى انتقالهم من ديار العلم، ومُقام العلماء والصالحين، إلى حيث لا وجود لهؤلاء الأخيار، مصابيحِ الدجى، وأعلامِ الهدى، هي أحاديثُ دعا فيها النبيﷺ أمّته إلى اعتزال المدن، والفرار إلى البوادي عند ظهور الفتن، أو أيّ شيء يشكّل خطرا على دينهم؛ ومن هذه الأحاديث قولهﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**» (البخاري، 2001، ص13)، وهو أصل من أصول الإسلام في التحذير من الفتن، والأمر باجتنابها وعدم استشرافها، وهو شامل لكلّ حال يعيشها المسلم يمكن أن يخاطر فيها بدينه؛ قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: "والخبر دالٌّ على فضيلةِ العُزلة لمن خافَ على دينه" (ابن حجر، 1959، ج13، ص42).

ومن فوائد هذا الحديث العظيمة التي تُعيننا على فهم مراد الشارع من النهي عن سكنى البوادي أنّه تضمّن ذكر العلاقة الأصلية بين البداوة والحضارة؛ وهي أنّ الأصل في حياة المسلم أن يعيش في الحاضرة ما أمكنه ذلك، وأن لا يخرج عنها إلا لحاجة أو ضرورة، وأعظم هذه الضرورات حفظ دينه؛ يظهر ذلك في قولهﷺ: «**يفرّ بدينه من الفتن**»؛ فذِكرُ الفرار هنا، إضافةً إلى كونه يصوِّر لنا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الخوف الشديد على مصالح دينه، فإنّه يشير إلى أنّ الأصل هو أن يعيش المسلم في حاضرة؛ لما فيها من عوامل حفظ الدّين، وتقوية الإيمان، وتنمية العلم النافع، والعمل بمقتضاه،

فإن انعدم فيها هذا الأمر صار لزاما عليه أن يهجرها، وينتقل إلى البوادي والأرياف؛ فإنّها خير له عند ربّه ثوابًا، وخير أملا.

الإجابة عن التساؤل الثاني: ويمكن اعتبارها الإثبات الواقعي لتأثير العلم الشرعي في أهل البادية، وتقليل القدر الأكبر من جفائهم، وغلظة طباعهم، ونعني هنا تلك النماذجُ الرائعة التي عرفتها البادية على مرّ العصور والدهور، وإن كانت قليلة في واقع الأمر، وبخاصة النماذج التي كانت في زمن النبيﷺ، وشُهد لها برجاحة العقل، ولين العريكة، وحسن الخلق، ومن هذه النماذج ما وردت الإشارة إليه في حديث أنسﷺ؛ وهو قوله: «**نُهينَا في القُرْآنِ أنْ نَسْأَلَ النبيﷺ عن شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يجيءَ الرّجُلُ العَاقِلُ مِنْ أَهْلِ البَادِيةِ فَيَسْأَلَهُ..**» (النسائي، 2001، ج3، ص89).

ومنها ضِمام بن ثعلبةﷺ، الأعرابيُّ الذي جاء إلى مسجد رسول اللهﷺ، وسأله أسئلة فأوجز وأجاد، حتى كان عمر بن الخطابﷺ يقول: «**ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ مَسْأَلَةً، وَلا أَوْجَزَ مِنْ ضِمَام**» (البغوي، 2000، ص402)، وكان ابن عباسﷺ يقول: «**مَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَومٍ كان أَفْضَلَ مِنْ ضِمام بنِ ثَعْلَبَة**»(أحمد، 1995، ج3، ص87).

ولا يزال الناس إلى اليوم يرون من أهل البادية مَن هم أفضل من ملء الأرض من كثير من أهل الحاضرة، وإنما يرجع ذلك بعد التأمّل إلى العناية بعلوم الشرع، والعمل بمقتضياتها، ولو كان أمّيا لا يقرأ ولا يكتب؛ إذ العبرة بالسؤال عن دين الله تعالى، وامتثال أمره ونهيه عقيدةً وعملا وسلوكًا، لا بمجرّد بلوغ المستويات الرفيعة، وحصد الألقاب، والشهادات العالية الزائفة.

وعليه، فإنّ على أهل البادية أن يكون منهم هذا الأمرُ على أتمّ بال، وأن يكونوا في العناية بتطلُّب ما يحتاجونه من علوم الشريعة في أحسن حال، كلٌّ على حسب مقدوره، وبذلك يسلمون من كثير من آفات البداوة، وطباع الأعراب الغلاظ الجُفاة.

ولقد أنعم الله تعالى على عباده في الأزمنة الأخيرة بنعمٍ عظيمة؛ منها هذه الوسائل المستحدثة الخفيفة، والأجهزة الجوّالة الظريفة، التي قرّب الله سبحانه بها المسافات البعيدة، ويسّر بها سبل العلم، وذلّل صعوباته لطالبيه؛ بحيث يمكن للمرء في أقاصي البوادي والأرياف أن يعوّض كثيرا مما فاته من مجالس أهل العلم، وحلق الذكر والوعظ، ولو كان يزاول أشقّ الأعمال، ويركب في سبيلها المراكب الوعرة، مع الاعتراف بأنّ ذلك لا يُغني عن سكنى الحواضر، اللهم إذا تعلق الأمر بزمن الفتن والقلاقل؛ التي مرّ معنا قريبا وصيّة نبيّ الرحمةﷺ بضرورة الفرار عند ظهورها إلى البوادي، وترك الإقامة بالمدن التي تموج فيها، والأمصار التي تنتشر بها.

ونضيف إلى هذه الوصية أثرًا مبارَكًا عن صاحب سرّ رسول اللهﷺ؛ حذيفة بن اليمانﷺ قال فيه: «**يأتي على الناس زمانٌ خيرُ منازلهم البادية**» (المروزي، 1992، ص191)، وسنحاول فيما بقي معنا

من هذا المقال أن نُثبت أنّ هذا الزمان الذي يتحدث عنه حذيفةﷺ، وهو زمان الفتن بلا شك، هو الزمان الذي تنطفئ فيه مصابيح العلم الشرعي، وينغمس فيه أهل الحاضرة في ملذّات الحياة، ويشتدّ فيه لهثهم وراء كل شيء يمكّنهم منها، أو يوصلهم إليها.

4. 2. حاجة الحضارة الإنسانية إلى علوم الشريعة

تقدّم معنا أن مصطلح الحضارة عرف تطوّرًا دلاليا، انتقل فيه من الدلالة على معنى الحضور والشهود، إلى الدلالة على الرقيّ، والمدنية، والترف، والازدهار، ولا يبالغ المرء حين يقول إنّ هذا التطور الدلالي حدث مع بداية ظهور الدرس الحضاري؛ حيث نجد ابن خلدون، وهو من أوائل المؤسّسين لمباحث هذا الدرس، يعرّف الحضارة بقوله: "الحضارة إنّما هي تفنّن في التّرف، وإحكام الصّنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه؛ من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله" (ابن خلدون، 1988، ص216). ومع تسارع الأحداث التي عرفها عالَم الإنسان، ووصلت إليها يدُه من الإنجازات المختلفة، والابتكارات المتنوعة، تطوّر مفهوم الحضارة أكثر؛ ليتجاوز الحدود التي رسمها ابن خلدون لجوهر الحضارة، ويضمّ معانيَ كثيرة أخرى، ذكر منها إدوارد تايلور (Tylor: 1832–1917م) الثقافة والفنون والسياسة، فقال: "الحضارة درجةٌ من التقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة"[] (طلبة سلكها، 2015، موقع إلكتروني).

ومن الباحثين العرب الذين ارتأوا توسيع دائرة مفهوم الحضارة نختار الدكتور حسين مؤنس الذي اعتبرها "ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان هذا المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية" (مؤنس، 1998، ص237).

ولا نريد أن نطوّل المقام بذكر أقوال الباحثين في تعريف الحضارة؛ فقد تقدّم معنا بيان أنّها كثيرة جدّا، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أنّ الحضارة عند هؤلاء الباحثين، وهم الأكثرون، تتمثّل في نتاج المجهودات البشرية، وحصيلة بحوث بني الإنسان في كل مجالات الحياة؛ النفسية، والأسرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، ونحوها، وهذا ما لا نخالف فيه، ولا ننكره؛ إذ من المعلوم أنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، ووهبه من القدرات والقوى ما يعينه على تعمير الأرض، واستغلال خيراتها الكثيرة العجيبة، وركّب فيه من عناصر الشهوة، وحب الاستطلاع، والرغبة في الاستحواذ على المقدّرات والثروات ما لا يُستغرَب معه أن يصل إلى هذا المستوى الكبير من الرفاهية المادّية، وأسباب التنعّم، ووسائل استخراج خيرات الأرض، واستغلالها لإشباع رغبات النفس، والمضيّ بالحياة البشرية قُدما في دورات بيولوجية حيوية يشترك معه في بعضها كثير من البهائم العجماوات. ولكن، هل هذه هي الحضارة

التي نتحدّث عنها في هذا المقال؟ وبعبارة أخرى أصحّ: هل هذه هي الحضارة البشرية التي تقابل البداوة المذكورة في النصوص الشرعية؟

إنّ البداوة المذكورة، أو بالأحرى المذمومة في النصوص الشرعية هي بيئةٌ أخبر النبيﷺ أنها تورِث أهلها جفاءً وقسوة، ووصف ربّ العالمين أنّ كثيرا من ساكنيها هم أشدّ الناس كفرًا ونفاقا، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل على رسولهﷺ، ولكننا لا نجد في هذه النصوص ذكرًا لما تورثه هذه البداوة على أهلها من صفاتٍ بدنية، أو جهل بفنون البناء، والهندسة، والتأنُّق، ونحو ذلك مما عُرف به أهل المدن والأمصار؛ وعليه فإنّ مثل هذه المعارف والفنون ليست هي وحدها ما أكسَب الحضارة أفضليةً على البداوة، وإنما الذي جاءت به النصوص الشرعية، وشهدت به أحوال أهل البدو وأهل الحضر أنّ جفاء الطباع، وقسوة القلوب، وبلادة الأذهان، ورداءة الفكر، كلّ ذلك إنما مردُّه –في المقام الأول– إلى الغفلة عن ذكر الله تعالى، والإعراض عن طلب العلم النافع، والعمل بمقتضياته وتوجيهاته، ولم يكتسب أهل المدن والأمصار الذين ورد في بعض كتب التفسير ما نُسب إليهم فيها من نُبل، وفضل، وعلم، وحلم، ونحو ذلك من السجايا والخصال الحميدة إلا بما عندهم من أنوار علوم الشريعة[1]؛ ومن أقوى الأدلّة على هذا ما ثبت في السنّة النبوية من أنّ الله تبارك وتعالى قبل أن يبعث نبيّهﷺ بقليل اطّلع على أهل الأرض، عربًا وعجما، وكان فيهم بلا شكّ من بلغ ذروة الحضارة في زمانه، الحضارة التي يتحدّث عنها الكثيرون اليوم، متمثلةً في تشييد القصور، والتفنّن في الترف، والمهارة في تأثيث البيوت، ونسج الثياب، وصناعة السيوف وآلات الحروب، ونحوها، ومع ذلك فإنّه سبحانه مقَتهم أجمعين إلا قليلا منهم بيّنهم لنا الصادق المصدوقﷺ في قوله: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» (مسلم، د.ت، ج4، ص2197). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا مقت الله تعالى أولئك، واستثنى هؤلاء؟ وبعبارة أخرى: بأيّ شيء افترق هؤلاء عن أولئك؟

الممقوتون هم أكثر أهل الأرض في ذلك الزمان، وهُم، كما بيّن أهل العلم بالحديث، الذين "رآهم تبارك وتعالى ووجدهم متفقين على الشرك، منهمكين في الضلالة" (الطيبي، 1997، ص3395)، ومَن كان

---

[1] لا ينبغي أن يُفهم من مثل هذه العبارات أنّ وصف أهل الحضارة بهذه المحامد، وإرجاعَه إلى كونهم أقرب إلى مجالس العلم، وحلق الذكر، يقتضي أنّ كل واحد منهم لابد وأن يكون معه قدرٌ كاف من هذه العناية؛ فكثير منهم لا يرفع بذلك رأسا، ولا يلقي له بالا، أو أنّه يقتضي أيضا أنه لا تخلو حاضرة من مثل هذه المجالس، لا، بل المسألة نسبية من جهة، واعتبارية من جهة أخرى؛ فقد يكون في البلدة الواحدة، وربما في الحي الواحد، بل ربما تحت السقف الواحد مَن يختلفون في إقبالهم على العلم، وإذعانهم له، وعملهم به؛ فيختلفون تبعا لذلك في قسوة قلوبهم، وجفاء طباعهم، وسوء أخلاقهم. وأما الناحية الاعتبارية فإن المقصود منها أنّ الحاضرة مهما كان كثير من أهلها بعيدين عن حياض العلم، ومجالس الخير، فإنّ كثيرا من أجوائها منسجمة مع الإطار العام لتعاليم الشريعة الإسلامية؛ فتارة بسبب ما يُلقى فيها من المواعظ الجُمَعية، وتارة بما تدفع به المجالس العائلية، أو العملية، أو نحوها من النصائح، والتوجيهات، والوصايا الشرعية، وغير ذلك من الأسباب التي يمنّ الله تعالى بها على من يشاء من عباده، ويهيئ لهم أسبابها، وينفعهم بها، وأكثرها في المدن والحواضر، والله تعالى أعلم.

هذا حالُهم لاشكّ أنّهم يكونون أقسى الناس قلوبا، وأخسّهم نفوسًا، وأغلظهم طباعًا، ولو كان فيهم رقّة أبدان، ونعومة ثياب، ومهارة في شتى فنون العيش والتنعّم.

والمستثنَون هم قلّة قليلة "باقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل" (النووي، 1972، ص198)، وتأمّل كيف أنّ النبيّﷺ لم يخبرنا عن حال هؤلاء ولا أولئك من البداوة أو الحضارة، لعدم وجود الداعي إلى ذلك؛ فالجميع ممقوتون عند الله تبارك وتعالى، مع أنّه لا يخالط يقينَنا شكّ في أنّ الممقوتين من أهل البوادي كانوا أشدّ مقتًا عند الله تعالى من نظرائهم من أهل الحواضر، باعتبار ما أخبرَنا به جلّ وعلا عن عامّة الأعراب أنّهم أشدّ كفرًا ونفاقا.

إنّ الحضارة الإسلامية الأصيلة هي التي تقوم على أساسٍ متين واحد، تتفرّع عنه بقية الأسس الأخرى التي ثبت شرعا وعقلا أنّ هذه الحضارة تستمدّ منها حياتها وقوّتها، هذا الأساس هو العلم النافع، الذي يتمثّل أساسا في علوم الشريعة المستمدّة من وحي الله تعالى: كتابه المنزّل، وشرائعه التي يبلّغها أنبياؤه ورسله.

وعلى الرغم من صعوبة العثور على كتابات تقرّر هذا المعنى، حتى تلك التي بين دفّتيها مئات الصفحات، إلا أنّنا لا نزعم أننا أتينا في كلامنا هذا ببدع من القول، ولا ندّعي أنّنا لم نُسبَق إلى تقرير هذا المعنى الشريف من المعاني التي ينبغي أن يرتكز عليها علم الحضارة؛ لأنّ عددا من الباحثين البارزين أدركوا هذه الحقيقة، ونادوا بها بأعلى أصواتهم، ولكننا نأسف لكون هذه الأصوات لم يُسمع كثير منها؛ إمّا لكثرة الحواجز التي تحول بينها وبين آذان المستمعين، وإمّا لوجود أصوات أخرى صاخبة، شوّشت عليها، ووقفت دون بلوغها مداها، وتحقيقها مبتغاها.

من هذه الأصوات الرزينة التي أعلنت اعتقادها بضرورة قيام الحضارة الإنسانية على أسس من الوحي الإلهي صوتُ المفكّر الجزائري مالك بن نبي عليه رحمة الله تعالى، ذكر ذلك في مناسبات عديدة، مسموعة ومقروءة، منها قوله في كتابه شروط النهضة: "الحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلا في صورة وحْي يهبط من السماء، ويكون للناس شِرْعة ومِنْهاجًا.." (ابن نبي، 1986، ص51)، وقوله أيضا: "من المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن لها قبل نزول القرآن إلا شعبٌ بدوي يعيش في صحراء مجْدبَة، يذهب وقته هباءً لا ينتفع به..، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت راكدة ضامرة، وبعبارة أخرى مكدّسة لا تؤدي دوراً مّا في التاريخ، حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء..، نشأت بين هذه العناصر الثلاثة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة: اقرأ التي أدهشت النبي الأميّ، وأثارت معه وعليه العالَم؛ فمن تلك اللحظة وثبَتْ قبائل العرب على مسرح التاريخ حين ظلت قروناً طِوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى التمدن والرقيّ" (نفسه).

وإذا كان الشيء يُظهر حسنَه ضدُّه، فإنّ الحضارة الإسلامية الأصيلة تتميّز عن غيرها بنفسها وبضدّها؛ بنفسها حسبما ورد في مقولة مالكٍ هذه، ونظائرها من شهادات المسلمين وغير المسلمين على أنّ الحضارة المستمدّة من تعاليم الوحي الإلهي المقدّس هي أرقى الحضارات، بل كلّ ما سواها من حضارات مزعومة هي محض خيالات وأوهام.

وبضدّها حين نتأمّل ما تعجّ به الحضارات الغربية من تمزّقٍ في أنسجة مجتمعاتها، وتآكل لبنيانها، وارتفاع رهيب لأعداد الجرائم، والانتحارات، والأمراض النفسية، والاختلالات الأسرية والاجتماعية؛ بسبب ما يعانيه أكثر أفرادها من فراغ روحي، وهمجيّة في إشباع رغبات الجسد، وشهوات النفس، وكلّ ذلك بلا شكّ راجع إلى الابتعاد عن تعاليم الوحي الإلهي المقدّس، ولا أريد في هذا السياق أن أستدلّ بأقوال أئمة التفسير، أو الحديث، أو غيرهم من علماء المسلمين؛ فقد لا تكفي عند كثير من المولعين بالحضارة الغربية لأن تبلغ درجة الإقناع والحجّة، بل أختار ثلاثة أقوال من بين مئات الأقوال التي ملأ بها المفكرون الغربيون كتبهم ومذكّراتهم، وبخاصة تلك التي ألّفوها في أخريات حياتهم، حين خمدت في نفوس كثير نيران التعصب الأعمى لانتماءاتهم، واكتملت في أعينهم الصورة عن حضارتهم البالية:

يقول المؤرّخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي (Arnold Toynbee 1889–1975) أحد أشهر الفلاسفة الأوروبيين: "إن أزمة الحضارة الغربية هي الدين، وإن الحضارة الغربية لا يمكن إنقاذها إلا بالدين؛ لأنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحوّل الإنسان إلى قزم مشوّه يفتقد عناصر وجوده الإنساني، ويعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب، والذي يُحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف، ويُحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة والتمزق النفسي" (الدالاتي، د.ت، موقع إلكتروني).

وقال جبريل مارسيل (Gabriel Marcel 1889–1975): "لا أشك أن أحداً منا يشكّ في تفاهة وضياع هذه الحضارة"!

ويقول كولن ولسون (Colin wilson 1931–2013): "أَنظر إلى حضارتنا نظري إلى شيء رخيص تافه، باعتبار أنها تُمثل انحطاط جميع المقاييس العقلية.."!!

وبذلك يُعلم أنّ قيادة أصحاب هذه الحضارات الزائفة لأمم العالم، وفي مقدّمتها الأمّة الإسلامية، خير أمّة أخرجت للناس، هي فقط في أذهان من لم يكتمل في نفسه حظُّه الكافي من الاعتزاز بالانتماء لهذه الأمّة من جهة، وما ابتُلي به قلبُه من الانبهار بما حقّقته الحضارات الغربية من تقدُّم في المجالات التكنولوجية والتقنية، ونحوها من جهة أخرى، وهؤلاء –مع الأسف الشديد– كثيرون في أمّتنا، ولا يبعُد أن يكونوا هم الأكثر، وإنّما انطلت عليهم هذه الفرية الصلعاء لأسباب عديدة، من أهمّها تلك الحملات الترويجية التي يخوضها فلاسفة الحضارة الغربية كابرًا عن كابر، والتي تعتمد في كثير من أشكالها على

الكذب، والخداع، والتزوير، والتدليس؛ يقول أحدهم، وهو ماكس نوردو: "اكذب واكذب وادّعِ؛ فلن يكتشف أمرك غير العقلاء، وما أقلَّهم" (نفسه)!

وأمّا ميكيافيلي (Nicolas Machiavel 1469-1529)، أحد أكبر فلاسفة الحضارة الغربية، فيقول بكلّ جرأة وصراحة: "إن من يتقن الخداع دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته! ومن الخير أن تتظاهر بالرحمة والشعور النبيل والإخلاص والتدين..، ولكن عليك أن تعدّ نفسك عندما تقتضي الضرورة لتكون متّصفاً بعكسها" (المرجع السابق)!! ومن وصايا نابليون (Napoleone di Buonaparte 1769-1821) التي اعتمدها في حملاته وحروبه قوله: "لا تنس أن تضع دائمًا في الواجهة لصاً يتصرف تصرّف الشرفاء"(نفسه)!

ومِن أشهر من قامت أسس الحضارة الغربية على أفكارهم وتوجيهاتهم الفيلسوفُ الألماني فريديرك نيتشه (Friedrich Nietzsche 1844-1900)، يعرّف بنفسه قائلا: "أنا لا أريد أن أكون نورًا لأبناء هذا الزمان؛ بل أريد إيراثهم العمى..، وكل مولود جديد يأتي بِرِجْس إلى العالم! فإيّاكم وممارسة الفضائل! ولْنَكُن أعداءً فيما بيننا، وليحشد كل منا قواه ليحارب الآخرين؛ فخير السلام ما قَصُرت مدته!! وإنّ من الخير أن تكون الأقذار كثيرة في هذا العالم! فلا معنى للوجود، والحكمة قاتلة" (نفسه).

أمثالُ هؤلاء هم الذين استقت منهم الحضارة الغربية أسسها ومقوّماتها، وعلى خطاهم يسير أكثر أبنائها وروّادها، فهيهات هيهات أن يسوغ لنا أن نعقد مقارنة بين هذه الحضارة وحضارةٍ قامت على أسسٍ مستمدّة من شرع ربّ العالمين، جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه.

بقيت إشكالية أخيرة نختم بها هذا المقال، وتتمثل فيما يثبته الواقع المؤرَّخ والمشاهَد من نماذج غير قليلة من أهل البادية الذين فيهم عنايةٌ بالشريعة، والتفقّه في الدين، ولزوم الاستقامة، ولكنّ فيهم مع ذلك جفاءً ظاهرًا، وغلظةً تجعل مَن يشاهدهم يكتشف سريعا أنّهم من أهل البادية، ولو ارتدَوا ثياب أهل الحاضرة، وسكنوا مساكنهم.

وفي المقابل أيضا نماذج كثيرة من أهل الحاضرة، ممن لا حظَّ له قليلا ولا كثيرا من العلوم الشرعية، وفوق ذلك هم من أكثر الناس فسقًا وانحرافا، وربما لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومع ذلك فإنّ من يخالطهم يرى فيهم أخلاق أهل الحاضرة، ولطف عبارتهم، ولين طباعهم، مما يجعل حظوظ دعوتهم، وتبصيرهم بالحق أكثر من حظوظ إقناع بعض أهل الصلاح من أهل البادية بشيء قد لا يكون في حاجة إلى إقناع أصلا؛ وإنما تكفيه مجرد نظرة هادئة إليه، أو تفكُّر رزين في حقيقته؛ فكيف يُفهم هذا في ضوء ما تقدّم تقريره من أنّ حصول جفاء كثير من أهل البادية، وبلادة أذهانهم، وقسوة قلوبهم إنما كان بسبب قلّة، أو انعدام عنايتهم بعلوم الشريعة، والعمل بمقتضياتها؟

والحقّ أنّ هذه الإشكالية هي أقوى ما يُمكن أن يُعترض به على ما تقرّر في هذا البحث؛ ولذلك جعلتُها في هذا الموضع، وحلُّها إن شاء الله تعالى متمحور حول كلمة: "**جفا**" في حديث النبيﷺ: «**مَن بَدا جَفا**»، وروايته الأخرى: «**مَنْ سَكَنَ البادِيةَ جَفَا**»، وهو الحديث الذي تجاوزنا الحديث عنه سابقًا لسببين؛ تقدّم ذكر أحدهما عند الكلام عن حديث ثوبانﷺ، ونذكر هنا السبب الآخر، وهو مناسبة هذا الموضع لعرض شرحٍ نحسَب أنّه أجمع الشروح، وأوفاها لمعاني هذا الحديث، وأقدرها بإذن الله تعالى على حلّ هذه الإشكالية؛ وهو قول القاضي عياض رحمه الله تعالى: "جفا الرجل إذا غلظ قلبه وقسا، ولم يرِقَّ لبرٍّ وصلةِ رحم، وهو الغالب على سكان البوادي؛ لبعدهم عن أهل العلم وقلة اختلاطهم بالناس، فصارت طباعهم كطباع الوحوش" (القاري، 2002، ص2411)، اجتمع في هذا الشرح الوجيز خمسُ محاسن لم تجتمع في غيره والله تعالى أعلم:

– **الأولى:** إشارته إلى نوعين من الجفاء؛ جفاء قلب وباطن، وجفاء سلوك وظاهر.

– **الثانية:** دقّة عباراته؛ ومن ذلك استعماله حكم الأغلبية، لا الإطلاق، في وصف أهل البادية بالغلظة بالجفاء.

– **الثالثة:** ذكرُه لسببيْ نشوء الجفاء في أهل البادية؛ وهما البعد عن أهل العلم، وقلة الاختلاط بالناس.

– **الرابعة:** تقديمه البعد عن أهل العلم على قلة الاختلاط في الناس؛ لتقدّمه عليه أهمّيةً، وشدّةَ تأثير.

– **الخامسة:** اعتدال عبارته، وموافقتها لأسلوب القرآن في تشبيه طباع بعض البشر بطباع الحيوانات، لا تشبيه ذواتهم بذواتهم.

وفي ضوء هذه العبارة المباركة للقاضي رحمه الله نستعين بالله تعالى في حلّ الإشكالية التي معنا فنقول:

إنّ أمثلَ بيئة يعيش فيها الإنسان هي تلك تتوفر فيها ميزتان اثنتان:

– مجالسُ علم وذكر؛ يلين بها قلبه، وينمو فيها عقله، ويتعلّم من خلالها كيف يتعامل مع ربّه عزّ وجل، ومع من حوله من أبناء نوعه وغيرهم.

– ومخالطةٌ للناس، وتعامل معهم في ضوء ما تعلّمه من علوم العقل والنقل.

فإن انعدمت مجالس العلم، أو داوم العبد على التخلّف عنها: قسا قلبُه، وأصابه من الجفاء والغلظة بحسب تخلّفه، وأورثه ذلك تفريطًا في حقوق الله تعالى وخلقه عليه، وبقيَ معه من أخلاق الحضارة؛ من لطف تعامل، ومرونةٍ في السلوك، ورفق في التصرّف ما فرضته عليه مخالطته لمن حوله، واعتيادُه على رقّة المدنية، ونظام المجتمعات الحضرية، مع تفاوتٍ بين الناس في ذلك بحسب تفاوتهم في التأنّق، والتفنّن في المعاش، والأثاث، والملبَس، والمسكن، ونحو ذلك.

وأمّا إذا كان العكس؛ بأن قلّت مخالطة المسلم للناس، بانتقاله إلى البادية، أو انعزاله في بيته وقتا طويلا، مع العناية بالتفقه في الدين، وتعاهد مجالس أهل العلم: لانَ قلبُه، وحسُنت أخلاقه، وفاتَه شيءٌ من طباع أهل الحضارة؛ فربما علا صوته لغير حاجة، أو تبلّد ذهنه أحيانا، أو ظهر على شكله وسلوكه ما يُشعر بأنه من أهل البادية، وينبغي التنبيه على أنّ العناية بالعلم الشرعي من شأنها أن تقلّص بشكل كبير ما تُحدثه قلّة مخالطة الناس من جفاء طباع، والأدلة على ذلك كثيرة، لعلّ أهمها:

– النماذج البدوية التي ظلّ تاريخ البشرية، ولا يزال يسجّل أسماءها، ويثبت روعتها ومثاليتها، وقد مرّ معنا ذكر بعضها، ونذكّر هنا بأنّ هذه النماذج قليلة جدا إذا ما قورنت بنظائرها من أهل الحاضرة.

– والدليل الثاني هو أنّ النبيّﷺ حين أمر أمته باعتزال المدن والأمصار التي تموج بالفتن، والفرار إلى البوادي وشعف الجبال، لم ينبّه على ضرورة مخالطة الناس حفاظا على أخلاق الرفق، واللين، والأناة، نحوها؛ لأنهﷺ يعلم أنّ من فرّ بدينه من الفتنة لا شكّ أنه يكون من العناية بطلب العلوم الشرعية، والآداب الإسلامية، بحيث لا يفوته أن يهذِّب أخلاقه، ويجنّب نفسه أخلاق جفاة أهل البادية، والله تعالى أعلم.

الحالة الرابعة للبيئة البشرية هي أسوأ الحالات؛ بعدٌ عن مجالس العلم، وقلّة مخالطة للناس، بيئة الأعراب الغلاظ الجُفاة، أشدّ الناس كفرا ونفاقًا، وأكثرهم قسوة وشقاقًا، وهم الذين ورد ذمُّهم صريحا في الكتاب والسنة، وهم حال أكثر أهل البادية، وأسوَؤهم على الإطلاق من نشأ في البداوة، وكبُر فيها، ولم يتعلّم من العلم شيئا يُذكر، ولا له زيارات لأهل الحاضرة، فأنّى لقلبه أن يلين، ولطباعه أن ترقّ، إنّ طباعه لأشبَه بطباع الوحوش، وقلبه لكالحجارة أو أشدّ قسوة، والله المستعان.

5. خاتمة:

نختم هذا البحث بذكر أهمّ ما توصل إليه من نتائج، وما يتقدّم به من توصيات:

النتائج:

– لا يُعرف أيُّ حاليْ البشر كان متقدّما على الآخر؛ البداوة أم الحضارة، وكلُّ ما قيل في ذلك محض مقاربات وتخمينات، لا يقوم شيء منها على دليل صريح يطمئنّ القلب للإذعان له، والاعتماد عليه.

– في ضوء نصوصٍ شرعية عامّة، ومسلّمات عقلية مجملة، أفصَحَ البحث عن الميل إلى القول بتقدُّم الحضارة على البداوة؛ لكونها أمكن لتحقيق الغاية العظمى من الخلق، وأقربَ إلى فطرة الإنسان، وطبيعة خِلقته.

– عرفت لفظة البدو تطوّرًا دلاليا؛ انتقلت فيه من الدلالة على مصدر فعل بدا يبدو، إلى الدلالة على اسم المكان الذي يبدو فيه الناس، وتظهر فيه بيوتهم من بعيد.

– وعرفت لفظة الحضارة هي الأخرى تطوّرا دلاليا؛ انتقلت فيه من الدلالة على معنى الحضور والشهود، وهو ما يقابل المعنى اللغوي للبداوة، إلى معاني الرقيّ، والتقدّم، والمدنية، وما يقابل الهمجية، والتوحّش، والرعونة، والبلادة.

– نهت الشريعة الإسلامية عن سكنى البوادي، وحذّرت منها، وهو ما يفهم منه أمرُها بلزوم المدن والأمصار؛ لكونها تعين على تحقيق سعادة الإنسان الدينية والدنيوية.

– ذكر أهل التفسير وشُرّاح الحديث أقوالا في بيان العلّة من نهي الشريعة عن سكنى البوادي، أشهرها أنّ ذلك راجع إلى أنّ أهلها بعيدون عن المدن والأمصار، وأنّهم في منأى عن حِلق الذكر، ومجالس العلماء.

– الذي تسنده النصوص الشرعية، وأخبار الواقع المعيش، أنّ علّة النهي عن سكنى البوادي هي في المقام الأوّل كونها مظنّة البعد عن مجالس العلم، ومجامع الخير؛ بدليل أنّ الله تعالى أثنى على بعض الأعراب في كتابه، فقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ ﴾ [التوبة: 99]، وبقرينة ذكر العلم في الآية التي ذمّ فيها الأعراب، وهي قوله جل وعلا: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ ﴾ [التوبة: 97].

– ممّا يؤكّد أنّ النهي عن البداوة معلَّل بكونها تعزل صاحبها عن مجالس العلم، وشهود الجُمَع والجماعات، ونحوها، أنّ النبيﷺ أمر باعتزال الحواضر، والفرار إلى البوادي في حال ظهور الفتن، ومعلومٌ أنّ أعظم أسباب ظهور الفتن هو تعطيل وظيفة علماء الشريعة، وهجران المسلمين لمجالسهم، واستبدال غيرهم بهم.

– الجفاء المذكور في النصوص الشرعية يشمل جفاء القلب وجفاء الطبع؛ فأما جفاء القلب فينشأ عن هجران مجالس العلم الشرعي، وقلّة العناية بالتفقه في الدين، وتهذيب النفس بالعلم والذكر. وأما جفاء الطبع فأكثر ما يكون بسبب قلة مخالطة الناس. وشرّ أنواع الجفاء جفاء الأعراب؛ الذين اجتمعت فيهم الآفتان، البعد عن مجالس العلم الشرعي، وقلة مخالطة الناس.

– العناية بالعلم الشرعي من شأنها أن تعوّض كثيرا من جفاء الطباع الناشئ عن قلّة مخالطة الناس، وبخاصة في الأزمنة التي تكون فيها العزلة خيرا من المخالطة، وهي أزمنة الفتن، أو الأزمنة التي يكثر فيها جلساء السوء لسبب أو لآخر.

- من فاته حظُّه من العلم الشرعي لم تُسعفه مخالطته للناس شيئا في تليين قلبه، وتهذيب نفسه وسلوكه، وهو وإن كان معه من رقّة الحضارة في نمط كلامه، ولباسه، وجلوسه، وقيامه، ونحو ذلك، إلا أنّه منطوٍ على قلب قاسٍ مظلم، تُظهر حقيقتَه حوادث الأيّام، وتفضحه شواهد الامتحان.

6. توصيات البحث:

يتقدّم الباحث بجملة من التوصيات، أهمُّها:

- التنبيهُ الدائم على حاجة الحضارة الإسلامية إلى مجالس العلوم الشرعية.

- المحافظة على خصوصية البحث الحضاري الإسلامي، وعدم الانسياق خلف مقولات الفلاسفة الغربيين، وبخاصة اللادينيين منهم، واستبدال الفكر الإسلامي، وأقوال جهابذة الإسلام بها.

- ضرورة الاعتدال في الكلام عن البداوة، وتجنّبُ الاستدلالِ القاصر ببعض النصوص الشرعية التي جاءت بذمّها، وإغفال النصوص التي أثنت على كثير من أهلها، وعدّدت جملة من مزاياها.

- تخصيص جانب من الدراسات، والدورات التكوينية لفائدة أهل البادية، والتركيز على ضرورة أن يعتنوا بالتزوّد المستمر بالزاد العلمي والإيماني الذي لا سبيل لهم إلى بداوة سالمة من الآفات والمفاسد إلا به.

- ينبغي على مدرّسي الحضارة أن يُدرجوا ضمن قائمة محاورها محورا خاصًّا بأزمنة ظهور الفتن، وموقف المسلم منها، وأنّه إن لم يتيسّر له الاستعانة بأهل العلم في مجابهتها فإنّ عليه الانتقال إلى البادية ما أمكنه ذلك؛ فرارا بدينه، وحفاظًا على نفسه من ظلمات الفتن وعواقبها الوخيمة.

- وينبغي أيضا التنبيه على أنّ مخالطة الناس التي يحتاج المسلم إليها لتهذيب طباعه، وتلطيف سلوكه وأخلاقه هي التي تكون منضبطة بضوابط الشرع؛ فقد ثبت في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّهﷺ نصوص عديدة في الأمر بترك مخالطة السفهاء، ومفارقة مجالس أهل اللغو والجُهلاء.

- في البادية منافع كثيرة، يحصُرها الكثيرون في جمال المناظر، ولطافة الأجواء، ونحوها، وهذا قصورٌ في التصور كبير؛ فمِن أعظم هذه المنافع أنّ في البادية مجالا واسعا للتأمل في خلق الله عز وجل، والتفكر في ملَكوته، وفرصةً لتجديد إيمان العبد، ومراجعة نفسه بعيدًا عن الضوضاء وزحام المدينة، وفيها مع ذلك انقطاعٌ إلى الله عزّ وجل، وتحقيق لمناجاة قد لا تتيسّر لكثير من أهل الحاضرة؛ لكثرة مشاغلهم، وندرة صفاء أذهانهم.

وصلى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليما كثيرا

7. قائمة المراجع:

* القرآن الكريم

المؤلفات:

1. ابن الأثير، المبارك، (1979)، *النهاية في غريب الحديث والأثر*، بيروت، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية.
2. ابن تيمية، أحمد، (1995)، مجموع الفتاوى، المملكة العربية السعودية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
3. ابن حجر، أحمد، (1959)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة.
4. ابن حنبل، أحمد، (1995)، المسند، القاهرة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث.
5. ابن خلدون، عبد الرحمن، (1988)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط2.
6. ابن رجب، عبد الرحمن، (1996)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المدينة النبوية – القاهرة، تحقيق: عدد من الباحثين، مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين.
7. ابن عاشور، محمد، (1984)، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر.
8. ابن عطية الأندلسي، عبد الحق، (2001)، المحرر الوجيز، بيروت، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية.
9. ابن فارس، أحمد، 1979، معجم مقاييس اللغة، بيروت، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.
10. ابن ماجه، محمد، (2009)، سنن ابن ماجه، بيروت، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد ومحمَّد كامل قره بللي وعَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط1.
11. ابن منظور، محمد، (1993)، لسان العرب: بيروت، دار صادر.
12. ابن نبي، مالك:
13. (1986)، شروط النهضة، بيروت، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دار الفكر.
14. (1993)، مذكرات شاهد للقرن، بيروت–دمشق، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، ط1.
15. أبو السعود، محمد، (د.ت)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: بيروت، دار إحياء التراث العربي.
16. الأزهري، محمد، (2001)، تهذيب اللغة، بيروت، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1.
17. الألباني، محمد، (د.ت)، صحيح الجامع الصغير وزياداته، بيروت، المكتب الإسلامي.
18. الألوسي، محمود، (1994)، روح المعاني، بيروت، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط1.
19. البخاري، محمد:
20. (1989)، الأدب المفرد، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، ط3.
21. (2001)، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1.
22. البغوي، الحسين، (1997)، مصر، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع
23. البغوي، عبد الله، (2000)، معجم الصحابة، الكويت، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، ط1.
24. الترمذي، محمد، (1975)، السنن، مصر، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2.
25. الرازي، محمد، (1999)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3.
26. الزمخشري، محمود، (1987)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3.
27. السعدي، عبد الرحمن، (2000)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1.

28. السمعاني، منصور، (1997)، تفسير القرآن، الرياض، السعودية، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، ط1.
29. الشاطبي، إبراهيم، (1997)، الموافقات، القاهرة، حققه: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1.
30. الشوكاني، محمد، (2000)، فتح القدير، بيروت، دمشق، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، ط1.
31. الصنعاني، محمد، (2011)، التنوير شرح الجامع الصغير، الرياض، تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، ط1.
32. الطبراني، سليمان، (1985)، المعجم الصغير، بيروت–عمان، تحقيق: محمد شكور محمود، المكتب الإسلامي، دار عمار، ط1.
33. الطبري، محمد:
34. (1967)، تاريخ الرسل والملوك: للطبري، بيروت، دار التراث، ط2.
35. (2000)، جامع البيان، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، ج20.
36. الطيبي، الحسين، (1997)، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة – الرياض، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1.
37. القاري، علي، (2002)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت، دار الفكر، ط1.
38. القرطبي، محمد، (1964)، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2.
39. المازري، محمد، (1988)، المُعْلم بفوائد مسلم، تونس–الجزائر، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر – المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر – المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، ط3.
40. المروزي، نعيم، (1991)، كتاب الفتن، القاهرة، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، ط1.
41. المناوي، محمد:
42. (1937)، فيض القدير شرح الجامع الصغير: مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط1.
43. (1988)، التيسير بشرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة الإمام الشافعي، ط3.
44. مؤنس، حسين، (1998)، الحضارة: الجزائر، دار المعرفة، ط2.
45. النسائي، أحمد، (2001)، السنن الكبرى، بيروت، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ط1.
46. النووي، يحيى، (1972)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2.
47. النويري، أحمد، (2002)، نهاية الأرب في فنون الأدب: القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1.
48. الواحدي، علي، (2009)، التفسير البسيط، أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1.

المقالات:

49. ربوزي، سمير، (2018)، نشأة الخط العربي بين التوقيف والاصطلاح، المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 13، العدد 02.

المواقع الإلكترونية:

50. الدوري، سيف، (2013)، *مفهوم الحضارة كما يصورها القرآن*، شبكة الألوكة بتاريخ: 27/7/2013ميلادي – 1434/9/19 هجري، رابطه: https://www.alukah.net/library/0/58026/
51. طلبه سلكها، إبراهيم، (د.ت)، مفهوم الحضارة، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=472734
52. الدالاتي، عبد المعطي، (د.ت)، *الغرب في قفص الاتّهام –رؤية من الداخل–*، موقع: صيد الفوائد، الرابط https://www.saaid.net/Doat/dali/3.htm